درويش من حارتنا

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
2020م- 1442هـ

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

ملحوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: درويش من حارتنا

اســـم المـؤلف: مصطفى فاضل الخولي

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقم الإيـــــداع: 19663 / 2020

الترقيـــم الدولي: 4 - 71 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

درويش من حارتنا

مجموعة قصصية

مصطفى فاضل الخولي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

درويش من حارتنا

درويش من حارتنا

يوم الجمعة اليتيمة.. آخر جمعة في شهر رمضان.. قد يكون العيد يوم غد أو بعد غد .

كعادة شباب الحي في كل عام في مثل هذا اليوم نقوم بعمل أحجبة ورقية نكتب بداخلها جملة قصيرة عبارة عن حكمة.. آية قرآنية .. قول مأثور.. ونحرص أن تكون كل تلك العبارات مما يبعث على التفاؤل و الأمل في نفس من يقرأها ..

ثم بعد ذلك نجمع هذه الأحجبة الورقية فيصعد بها بعضنا فوق سطح مسجد الحي (مسجد السيدة غنيمة) فننتظر خروج المصلين من صلاة العيد ونقوم بنثر تلك الأحجبة الورقية فوق رؤوسهم، ونلاحظ بعد ذلك جو المرح الذي ساد حين يلتقطونها في سرور ويقرأون ما بها ويبتسمون ويتبادلون النقاش فيما قرأ كلٌّ منهم في حجابه الذي التقط.

في يوم الجمعة ذاك منذ سنوات عدة، جلسنا كعادتنا في المسجد بعد صلاة العصر نقص الأوراق الصغيرة ونكتب فيها تلك العبارات المتفائلة ثم نطويها على هيئة حجاب ورقي و نضعها في صندوق .

وبينما نحن على حالنا تلك، وقف هناك على بعد بعض أمتار الشاب درويش.. أحد شباب الحي.. وقف يلاحظنا في شغف وكأنه يريد أن يشاركنا فيما نفعل .. إلا أن حياءه منعه .

فلم يكن درويش قد نال قسطا عاليا من التعليم مثل أغلبنا، واكتفى ببضع سنوات اتجه بعدها للعمل اليدوي كي يتكسب عيشه فيساعد جدته التي يعيش معها بعد وفاة أبويه في نفقات معيشتهم ..

ثم أخذته صحبة جديدة ممن يعمل معهم إلى طريق أبعده عنا فلم نعد نراه يعتاد المسجد إلا قليلاً وكلما مرت السنوات كان ارتباطه بمجموعتنا وصحبته لنا يقل، وظن أنه أقل منا، ويعتقد بأنه سيكون أكثر راحة وأوسع حرية و انطلاقا مع صحبته الجديدة.. و قد يكون هذا هو سبب وقوفه هكذا بعيدا يراقبنا وكأنه يقول بطول مكوثه هكذا أنه يريد أن ينضم إلينا فيما نفعل ..

فدعوناه نحن .. فاقترب درويش بخطى وجلة .. فألقى السلام ..

قلنا: تعال انضم إلينا يا درويش فشاركنا فيما نفعل

قال: و ما عساي أن أفعل معكم ؟

- تعال و اطو هذه الأوراق الصغيرة واجعلها على هيئة حجاب، وسوف تشاركنا غداً في نثرها فوق رؤوس المصلين حين يخرجون من صلاة العيد ...

ابتسم درويش ابتسامة عريضة وخلع نعله سريعاً ودخل المسجد و قال:

- سأتوضأ أولا وأصلي العصر ثم سأنضم إليكم .

و قبل أن يذهب درويش إلى الوضوء مد يده فسحب حجابا و هو يقول.. لأرى ما كتب لي فيه ففتحه ثم أخذ يقرؤه متلعثما، فأخذته منه و قرأت عليه ما كان مكتوبا ‹ الذكر و الصبر صفة أولياء الله ›

فتعجب درويش قليلا و تساءل :

- هل هذا شيء جيد لي ؟

فأجبته: جيد جداً.. الأولياء أقرب الناس إلى الله بعد الأنبياء و ذكر الله أعظم شيء في الدنيا و الصبر أعظم هبة يعطيها الله لإنسان.

قال: أولياء الله .. مثل السيدة غنيمة التي سميّ هذا المسجد على اسمها ؟

فابتسمنا جميعا.. وتعجبنا من هذا الربط الجميل الذي جمع به درويش بين فهمه لما قرأ و بين السيدة غنيمة .. تلك المرأة الصالحة والتي لا شك كانت من التقوى والعمل الصالح ما جعل الناس يكرمونها و يسمون مسجداً لله على اسمها .

فقلت لدرويش و أنا أبتسم ابتسامة إعجاب لفهمه للأمور :

- نعم يا درويش.. أولياء الله مثل السيدة غنيمة التي أسموا هذا المسجد على اسمها.

••••

عشر سنوات أو يزيد مرت على هذا اليوم.. لكنه مازال عالقا بالذكرى والوجدان مما دفعني أن تكون رسالة الدكتوراه التي أزمع أن أبدأ فيها عن

تلك المساجد الكثيرة و المنتشرة في ربوع بلادنا، و قد سميت على أسماء أولياء الله الصالحين .. قررت أن تكون رسالتي عن تلك المساجد وما يدور حولها من حكايات عنها و عن أولياء الله الذين سميت على أسمائهم .. أماكنها.. عمارتها.. أحيائها.. أثرها في نفوس من يسكن حولها .. حكايات توارثوها عن أصحاب الأسماء والمقامات إن كانت بها.. أشياء كثيرة تدور و ترتبط بها ..

إذن هذا هو البحث الذي أرضى عقلي ووجداني.. وكان من الطبيعي والمنطقي أن تكون زيارتي الأولى إلى بلدتي.. إلى حارتي.. ومسجدها.. مسجد السيدة غنيمة .

عشر سنوات غبتها عن حارتي.. تغيرت فيها أشياء كثيرة.. مالها هكذا أصبحت ضيقة وقد كنت أراها أوسع حي.. مالبناياتها هكذا قديمة متهالكة.. مالوجوه أهلها هكذا غريبة علىّ.. أتفعل السنوات القليلة فيها كل هذا.. لا غرو و لا عجب فمن كان فيها طفلا أصبح الآن صبيا و من كان حينها صبياً أصبح الآن شاباً.. و من كان شاباً أصبح الآن رجلاً.. أما زملاؤنا فقد تفرقوا أو قليل من بقى فيها ..

أما من كان يكبرنا فقد أدركه الهرم .. و من كان كهلا فقد أدركه الموت إلا نادراً.. أهكذا يفعل الزمان بنا.. نعم نعم.. و يبدو أنني أيضا قد تغيرت إلى حد أنني سرت في الحارة جيئة و ذهابا ثم وقفت دقائق كما كنا نقف دائما بجوار سور مسجد السيدة غنيمة قبل أن يلحظني أحد من جيراننا القدامى

فرحب بي أيما ترحيب ووقف بجانبي يعرف كل من يمر علينا بي. فتجمع عدد من أهل حارتي يسألون عن أحوالى وكم كانت سعادتهم حين رأو تغير حالتي، فأنا الآن عضو بهيئة التدريس بكلية الآداب.. وأقطن القاهرة وهي بالنسبة إليهم غاية المنى في الإقامة.. و ظللنا هكذا في حوارات وضحك و أخذت أستمع إلى حكايات عن السيدة غنيمة، كلٌ قد سمعها من أبيه أو جده وكنت وأنا أستمع أدون بعض الملاحظات و التي ستذكرني فيما بعد بما سمعت.

استمر الحال هكذا فترة من الزمن قطعها مجيء شخص رث الثياب ضعيف البنية ثقيل الحركة.. منكس الرأس.. قال وقد دلف من فرجة بين الحاضرين :

- هل تذكرني يا أستاذ .. أنا درويش ..

- درويش ؟!

تعجبت: ماذا فعل الزمان بك !

قال: لقد ماتت جدتي .. هل تذكر يا أستاذ كيف كنا نفعل في العيد ...

و قبل أن يكمل درويش حديثه لاحظت تململ بعض الحاضرين الذين أخذوا يستحثوه أن يذهب .. و في انكسار و خجل قال درويش :

- أهلا بك في حارتنا ..

ثم انسحب و هو يتحرك بوهن و ضعف باتجاه منزله .

بعدها لاحظت تعليقات الحاضرين و هي تصب عليه ذما و تقبيحاً ..

قلت: لقد كان شابا قويا يافعا.. و ظني به أنه كان يرعى جدته خير رعاية .
قالوا: أصدقاء السوء .. لقد أصبح مدمنا كما ترى ..
قلت: إذن لم كل هذا الجفاء منكم عليه ؟
قالوا: لقد حاولنا معه.. نصحناه مراراً.. لكنه مصر أن يمضي في نفس الطريق.
قلت: لقد كانت محاولاتكم تفتقد إلى الصدق والمثابرة ..
لم يعجب كلامي بعضا منهم فاستأذنوا للذهاب.. و اقترحت على من بقى معي أن نذهب إلى الغرفة التي يعيش بها درويش نتفقد أحواله و نحاول أن نقف على سبب تحوله ذلك ونتلمس طريقاً أو مخرجا له مما هو فيه .

•••••

غرفة مظلمة .. شديدة الفوضى.. قذرة.. جلس درويش على بابها القريب من الشارع يتلمس هواءً نظيفاً و ضياءً .
تساءلت .. قال :
- كُسر المصباح فلم أشتر غيره .. و من ذا الذي سينظف و يرتب الحجرة ..
قلت: أنت يا درويش ..
قال: كاره أنا للحياة و ما فيها.. ألم تر كيف ينظر إليّ أهل الحارة ويعاملونني .
قلت: أنت السبب في ذلك .

قال: أنا .. وحيدٌ أنا في الحياة بعد رحيل جدتي.. لا خال يسأل عني و لا عم يحاول أن يساعدني .. وكأنني فرع شجرة معلق في الهواء، لا جذع و لا جذور.. أتذكّر أيامنا في هذه الحارة .. كنا و كأننا أسرة واحدة .. الآن.. كل شيء جميل قد ضاع ..

قلت: ما هذا التشاؤم .. نحن أسرة و دائماً كنا كذلك، أتدري لماذا أنا هنا الآن.. لنكون بجانبك .. نساندك .. نحاول أن نساعدك أن تجد حلاً.

قال: حل ؟ الحل هو أن أموت أنا أيضا .. ألحق بجدتي .. هل تدري أنني حاولت الانتحار مرة .. لكن قبل أن أقدم على ذلك منعتني السيدة غنيمة؟

تتعجب .. أقسم بالله أنها هي التي منعتني .

قلت: كيف ؟ أخبرني .

قال: كنت قد عقدت العزم أنا أغادر هذه الحياة .. لا عمل.. لا نقود .. لا أهل .. لا مستقبل .. حاولت مرة أن أذهب إلى مصحة للعلاج .. و لكن أين النقود ؟ أين السند و المعين ؟ المهم كنت أفكر كيف سأنتحر .. بأي وسيلة .. إلا أنني عندما أخذتني سنة من النوم .. جاءتني السيدة غنيمة في المنام .

صمت درويش برهة ثم أكمل:

- جاءتني السيدة غنيمة و هي ترتدي ملابس خضراء جميلة .. و وجهها كأنه بدر منير .. زارتني هنا في غرفتي هذه .. ابتسمت لي ابتسامة لطيفة

و وضعت يدها فوق رأسي فشعرت براحة عجيبة .

قالت: اصبر يا درويش .. ماذا قرأت حين فتحت حجابك ذلك اليوم ؟

الصبر و الذكر صفة الأولياء .. اصبر يا درويش .. مالك و للدنيا .. من سيأخذ معه منها شيئا ؟

ما هي احتياجاتنا فيها.. لقمة تقيم أودنا و تسد جوعنا.. ولباسا يستر عوراتنا.. و مأوى نأوى إليه من حر الصيف و برد الشتاء .. ألا تملك ذلك يا درويش ؟

ما الذي تريد فقطعت المسافات في هذا الطريق الذي تسير فيه لتحصل عليه ؟

= أتبحث عن النسيان ؟ أتبحث عن السعادة ؟ أتريد أن ترضي شهواتك، والله يا درويش لَلزُّهد فيما في هذه الحياة هو أعظم ملذاتها .. أتريد أن تنتحر يا درويش يائساً من رحمة الله .. والله يا درويش لَرضا اله أولى أن نبحث عنه و نسير في طريقه ..

سمعت ما قاله درويش ذلك الإنسان البسيط الماثل أمامي بين النائم واليقظان فتعجبت و قلت :

- كل هذا يا درويش مازلت تذكره .. و تدعي أنك فاقد للزمان و المكان ؟!

فتغيرت ملامح درويش فجأة نحو الجدية و الصرامة و نظر إليّ و قال :

- ألا تصدقني؟ أقسم بالله أني رأيتها و تحدثت إليّ و هذا حديثها، أتدري ماذا رأيت أيضا بعد ذلك ؟

قلت أطمئنه أني أصدقه:

- نعم يا درويش.. قل .. أكمل لي ماذا رأيت أيضا ؟

أكمل درويش:

-لقد قالت لي السيدة غنيمة و هي تهم بالانصراف تذكر ماذا قرأت في الحجاب يا درويش.. الذكر والصبر هم صفات الأولياء.. ثم تركتني وانصرفت من هذا الباب الذي أجلس عليه و انطلقت باتجاه مسجدها ودخلت من خلال الجدار .

.....

كان عليّ أن أعود إلى أهل حارتي مرة أخرى كي نرى أمراً فيما وصل إليه حال درويش، فعرضت على درويش أن يذهب ليصلي معنا في مسجد السيدة غنيمة، لكنه رفض بشدة.. كانت نظرات الناس نصال توجه إليه.. كان يحاول بقدر الإمكان أن يهرب من نظرات و تعليقات و تصرفات الناس معه وذلك مما زاد حالته سوءاً و دفعه دفعاً لمزيد من العزلة و المخدرات ..

وكنت قد عزمت أن أصطحب مجموعة من كبار أهل الحارة إلى غرفة درويش فيروا بأعينهم كيف وأين يعيش ليدركوا حجم التقصير وأثر التجاهل الذي تعاملوا به مع شاب من أهلهم ابن من أبناء حارتهم ..

وكان الرأي بعد أن غادرنا غرفة درويش أنه لابد وأن نساعدجميعا بالمال والجهد كي يعالج بإحدى المصحات و أن نبدأ على الفور في تنفيذ ذلك الأمر

الذي عارضني فيه درويش بشدة و ذكر لي كيف أنه خاض هذه التجربة من قبل لكنه عاد و انتكس ..

قلت: كنت وحدك لكننا الآن –نحن أهلك- كلنا معك و سوف نساندك عند دخولك المصحة و بعد خروجك منها لن نتركك ..

ثم ذكرته بما قالته له السيدة غنيمة في منامه .. فابتسم ابتسامة خفيفة ونظر إليّ نظرة بين المدرك و الغائب عن الدنيا .

فأكملت: لقد أوصتك بالصبر و الذكر .. فاصبر على أقدار الله .. و بالذكر.. ذكر الله نستعين على تخطيها و تجاوزها و الإنتصار عليها .

•••••

أثناء خروجنا من المصحة بعد تعافيه قال درويش و هو ينظر إلى السماء و قد استنشق نفسا عميقا من الهواء :

- دنيا جديدة ..

ثم نظر إليّ و قال :

- لا أدري كيف أشكرك .. أو بماذا يمكنني أن أرد جميلك ؟!

قلت: تعدني وعد الحر ألّا تعود إلى ما كنت عليه أبداً .

قال: أعدك ..

ثم أكمل درويش كلامه مبتسما:

- مثلما وعدت السيدة غنيمة التي زارتني أمس بالمنام .

قلت: مرة أخرى.. منام جديد ؟

قال: نعم زارتني بالمنام أمس .

قلت: سوف أوافقك .. و لكن ماذا قالت لك هذه المرة أيضا ؟

قال: قالت لي ‹ تعال لزيارتنا يا درويش فلك مكان عندنا ›

قلت: لقد أعد أهل الحارة عملاً مؤقتاً لك

قال: ليس لي به حاجة، فأنا أعرف جيداً ماذا سأفعل .

وقبل أن أجيبه سارع درويش الخطى و تركني وحيداً أقف على باب المصحة فأخذت أنادي

عليه : انتظر يا درويش .. أنت لا تعرف القاهرة جيداً .. من أين ستنفق .. ليس معك نقود ..

= درويش انتظر يا درويش ..

لم يجبني لكنه أسرع الخطى و ابتعد .. ابتعد كثيراً ..

وظللت فترة أتابعه بنظري و هو يختبئ بين الناس.. يختفي ثم يظهر جزء منه ثم يختفي .. حتى صرت لا أراه ..

•••••

إستغرقني إعداد رسالة الدكتوراه بضع سنين.. زرت خلالها المئات من مساجد الأولياء.. سمعت مئات القصص عنهم.. تحدثت مع المئات من الناس المحيطين بتلك المساجد.. سألت و لاحظت.. و دونت.. و حللت ما

حصلت.. توصلت لإجابات كثيرة عن أسئلة مبهمة.. تعجبت من صفاء نفوس وقلوب كثيرين زهدوا الدنيا وجاؤوا للسباحة في بحور الذكر والشكر لخالق السموات وتعجبت أيضا لأناس حادت بهم أفكارهم عن طريق العبادة الحقة فخاضوا في بحور أخرى من من مفاهيم خاطئة عن الصوفية والمتصوفة.

إلا أن أعجب ما صادفت وكان مسكاً للختام لتلك الرحلة الطويلة حين زرت إحدى قرى الصعيد التي بها مسجد كبير مسمى باسم أحد أولياء الله فرأيت من يجلس بجوار المسجد.. لقد رأيت درويش ..

نعم درويش ابن حارتنا و هو يلبس رداءً أخضر و يضع فوق رأسه عمامة خضراء.. أطلق لحيته التي كسى البياض أجزاءً فيها..

تواريت قليلا أنا ورفيقي بحيث كنا نرى درويش ونلاحظه بينما هو لا يرانا ..

كان درويش مسنداً ظهره لجدار المسجد واضعاً بجانبه كرتونة لم أدر في البداية ما بها.. لكنني تبينت فيم بعد سرها.. لقد وضع فيها درويش أحجبة ورقية كتلك التي كنا نصنعها هناك في حارتنا أيام الأعياد ونكتب فيها المأثورات ثم نطويها وننثرها بعد ذلك فوق رؤوس مرتادي المسجد من المصلين.. رأيت درويش يشير لكل من أتاه أن يأخذ حجاباً من الكرتونة فيعطي درويش نقوداً أو لا يعطيه.. لا يهم.. كان لا يسأل الناس شيئاً إلا أنه

كان يبتسم لهم مع كل ابتسامة يطلقها من يفتح الحجاب ووجد تلك العبارات المبشرة المطمئنة التي كتبت فيها كما كنا نفعل ..

قلت لمن كان يرافقني أن يذهب فيسحب حجاباً من الكرتونة وأعطيته مبلغاً من المال وأوصيته أن يعطيه لدرويش بعد أن يسحب الحجاب و يتركه مسرعاً قبل أن يدرك درويش قيمة المبلغ .

قام مرافقي و قد علته الدهشة إلا أنه نفذ ما أوصيته به فقد ذهب لدرويش فسحب حجاباً ورقياً من الكرتونة وابتسم له درويش ابتسامته المعهودة فأعطاه المال وتركه مسرعا متجها إلى و أراد أن ننتظر لفتح الحجاب فنقرأ ما احتوى إلا أنني أخذت بيده مسرعا لأبتعد عن المكان قبل أن يلاحظنا درويش فيلحق بنا..

فلما ابتعدنا مسافة كافية سحب يده من يدي في قوة و قال:

- لن أنتقل من هنا قبل أن تقول لي سر ما فعلت .. ولماذا طلبت مني هذا، و من هذا الرجل و ما هي حكايته ...

فقلت له :

- أولا هذا حجاب ورقي مكتوب به آيات قرءانية أو قول مأثور أو حكمة و كلها مبشرة و متفائلة .. دعنا نرى ما هو مكتوب فيه

هممت بأن أفتح الحجاب إلا أنه وضع يده فوق يدي فأوقفني .. وقال :

- هذا أمر .. و لكن مَنْ هذا الرجل ..

قلت : هذا درويش .. اسمه درويش و هو من حارتنا و كان يشاركنا شباباً فيم كنا نفعل ..

قال: وما الذي أتى به إلى هنا.. أين نحن من بلدتكم. و فيم كان يشاركم ؟

قلت : دعته السيدة غنيمة أن ينضم إليهم .

قال : من السيدة غنيمة .. و من هم الذين سينضم إليهم ؟

قلت: ياه.. هذه قصة طويلة .. أتريد أن تسمعها .

قال: طبعا

فأخذت أحكي له قصة رجل من حارتنا .. اسمه درويش .

****

المحاولة

المحاولة

قررت أخيرا أن أستقيل.. لابد أن أترك هذا العمل الذي قيدني عشرين عاما.. موظف بسيط.. في إدارة منسية.. لا يهم اسمها ولا مكانها.. ولكن يهم أن اذهب كل يوم إلى العمل وأعود.. و في نهاية كل شهر اتقاضي أجراً يقضي عني حاجاتي و حاجات أسرتي البسيطة .

زوجتي (التي لا تلقي لي بالا أبدا) وابني الذي قرر أن يتركني وأمه ويذهب إلى بلاد غريبة محاولا أن يجد فيها عملا ورزقا يوفر له تكاليف زواجه .. وهو الذي ارتبط منذ شهور بفتاة غريبة مثله اقتنع بها وفرحت هي به، و فرحت أمه كعادتها بكل ما يأتي به ولدها .. ونظرت أنا إلى الأمر كله كأنه قصة أريد أن أرويها فأتابع تفاصيلها يوما بيوم وأدون إنطباعاتي عن أبطالها.. وقد تقمصت أنا شخصية الروائي، فتعاليت أن أكون أحد الأشخاص فيها.. وجلست هناك (هكذا تصورت نفسي) في برج عاجي أراقب و أدون و أحلل ما يحدث .

قرر الولد أن يتركني إذاً و قد يئس من أن أساعده و لو بالقليل من المال .. و أنّي لي به و طيلة حياتي كلها لم استطع أن أوفر فيها شيئا.. و كيف أوفر والرزق قليل و يكاد بالكاد يكفيني و من أعول.. كنا دوماً نحمد الله أن

مر الشهر بدون اقتراض وهكذا نعيش.. و هكذا مرت بنا السنوات.. وهكذا أصبحنا كالسائر في مكانه .. يحسب أنه يقطع مسافات ..
و الحقيقة أنه لم يبرح مكانه ..
المهم.. يئس الفتى مني و من مساعدتي له بالمال .
يئس حتى من أن أمده و لو بفكرة.. و لو بمشاركة شعورية.. فأنا كما ذكرت الروائي الذي يجلس في برجه العاجي يراقب و هو ليس أحد أبطال الحكاية ؟
هرب الفتى مني .. آثر أن يرحل إلى بلاد بعيدة.. و شجعته على ذلك خطيبته و باركت أمه الخطوة .. و كالعادة لم أبد رأيا و لم يبالوا هم أيضا بموافقتي أو رفضي .
أقول لكم.. اليوم قررت أن أستقيل (أصارحكم بالحقيقة.. أنا أُجبرت على الاستقالة فالمدير يريد أن تخلو وظيفتي ليشغلها قريب زوجته) .
صرخت الزوجة في وجهي .. طمأنتها .. فالمعاش تقريبا يساوي الراتب الذي أتقاضاه.. سأعطيه لها كالعادة.. أقتطع مبلغا ضئيلا ضئيلا لاحتياجاتي الشخصية (وهي بسيطة بسيطة) وأترك لها الباقي تدير به حياتنا وتنفق منه على احتياجات الأسرة .
اطمأنت.. وعادت إلى مجريات حياتها السابقة.. تذهب إلى السوق في الصباح.. تعد لنا طعاما.. ثم تجلس على الأريكة القديمة المواجهة للتلفاز تقلب برامجه حتى تستقر على شيء تراه فتجلس متابعة.. يساعدها في التسلية كمية من اللب المالح تحضره من السوق معها كلما فرغ .. فتجلس

لتتسلى به أثناء مشاهدتها للتلفاز.. ثم.. ثم تنام باكرا.. هي غير عابئة بي .. فأنا بالنسبة إليها جزء من روتين حياتها.. أن تراني كل يوم كما ترى مفردات قطع الموبيليا فتطمئن أن كل شيء موجود كما كان .

أقول لكم .. أنا أيضا أراها كذلك.. بعد الزواج بفترة قصيرة شعرت .. بل تأكدت أنها غريبة عني.. تصرفاتها.. عباراتها.. ردود أفعالها.. غريبة غريبة.. وكانت هي تنعتني دائما بأنني غريب غريب.. لا عجب فإذا كنت أعتر شخصيتها وتصرفاتها ورغباتها (و حتى أصناف الطعام و اختيار الملابس) غريبة فلا عجب أن تعتبرني أنا بتصرفاتي وعباراتي وردود أفعالي ورغباتي و ما أحب من الطعام و ما أفضل من الملابس غريبا عنها ..

و إذا كان خيار الانفصال مستحيلا لكلينا، فلا يملك أيا منا الشجاعة والقدرة أن يتخذ قرارا كهذا.. إذن فما ضير أن نعيش هكذا.. غرباء.. ويكون ابننا غريبٌ أيضا.. فلقد اكتسب بعض غرابة أمه.. وبعض غرابتي.. واعتبره زملاؤه غريبا عنهم.. واحبته خطيبته المختلفة بطباعها عن قريناتها و أحبها هو أيضا.. وارتبطا وقرر أن يذهب إلى بلاد غريبة بعيدة.. جديدة عليه ليبحث عن رزق فيها.. و ربما كان هناك في تلك البلاد، متوافقا مع أهلها.. وربما كانت ملائمة لطباعه وملكاته.. وربما عاش فيها سعيدا.. و ربما كان رزقه فيها وفيرا .

فأنا أعرف وأسمع عن أمثلة لأشخاص كانوا مثالا للفشل والفقر استطاعوا بسفرة كهذه أن تكون لهم حياة جديدة ناجحة و مربحة.. تمنيت أن يحدث

هذا مع ابني.. فلا تظنوا أني هكذا بلا مشاعر و لا أملك قلبا أبويا يتمنى لابنه كل الخير.. و تمنيت أيضا أن يرسل في طلب خطيبته ليضمها إليه.. و يا حبذا بعد ذلك أن يرسل لأمه أيضا كي تنضم إليهم .

ثم.. ثم تتحقق أكبر أماني أخيرا فأعيش وحدي.. أسكن وحدي.. وأمارس ما أحب وحدي.. و أدع ما أكره وحدي.. و انطلق بي الخيال.. ولكن الحقيقة و الواقع يؤكدان غير ذلك.

فها هو ابني منذ أسابيع يحاول و يحاول أن يجد فرصة للسفر.. لعله وجدها لكنه لم يخبرني.. و لكن ظاهر حاله يخبر بأنه مازال يبحث.. و ها هي زوجتي هناك في الردهة أطمئن على وجودها مع كل تغيير لبرامج التلفاز. أستمع إليه و أنا في غرفتي أجلس فوق كرسي أمام منضدتي و عليها أوراق فارغة ومجموعة من الأقلام.. نعم أحاول أنا أيضا أن أكتب .. قصصا كثيرة وروايات عديدة. صحيح أنني لم أخط حتى الآن فوق هذه الأوراق البيضاء خطأ و لكني سأفعل.

نعم يوما ما سأفعل.. ألم أحصل و أنا طالب في المدرسة الثانوية على جوائز في القصة القصيرة .. ألم أحصل على شهادتي تقدير أثناء دراستي الجامعية لمشاركتي في الفعاليات الأدبية.. إنها هنا بالقرب مني في أدراج هذا المكتب أمامي .. و الآن و بعد أن استقلت و أصبح لي وقت فراغ أستطيع أن أمارس فيه هوايتي القديمة .

و كما يقول المثل ‹ الفاضي يعمل قاضي › .. آه .

لقد وضعت يدي على جرح الروح عندي.. لقد كانت هذه أيضا أمنية كبرى لي.. (ومن أجلها التحقت بكلية الحقوق).. أمنية ضاعت وتبخرت في الهواء كما تبخرت كل أماني.. أمنية أن أكون قاضيا.. ولكني فشلت أن أكون كذلك مع ذلك التقدير الضعيف لدرجاتي في آخر سنة من الكلية ..

لقد نجحت بالكاد.. فارتضيت بالوظيفة البسيطة.. ارتضيت.. ليس تعبيرا دقيقا و لا حقيقيا ارتضيت .. بل قل ارتضت الوظيفة بي.. كما ارتضى أهل زوجتي بي.. و كما ارتضى كل شيء في حياتي بي.. لم يكن لدي في يوم من الأيام ذلك الإصرار أن أنال ما أصبو إليه.. فشل.. ثم فشل.. ثم محاولة ضعيفة.. فسقوط.. فمحاولة أخرى أضعف في رغبة أخرى.. فإخفاق.. و هكذا .

إذن هو رضا المضطر .. أو إضطرار الرضا .. فهل أنا هكذا كنت – وما زلت – لا مباليا بي.. لا مباليا برغباتي .. لا مباليا بآمالي .. تتقاذفني رياح أقداري فلا أبدى مقاومة.. تسيرني أحداث عمري فأنقاد لها .. مهلا .. مهلا.. رفقا.. رفقا.. و هل يستطيع أيا من كائن أن يفعل غير ذلك .. كثيرون أمثالي كانت لهم في الحياة آمال كبيرة و أحلام عريضة .. ذكروها لي في صبانا، ورأيتهم يحاولون بل يحفرون الصخر و يسهرون الليل ويقدمون العرق و الجهد .. ها هم.. أو بمعنى أدق.. ها هو معظمهم أراهم بعد كل هذه السنين و لم ينالوا إلا ما كتب لهم .. لم يأخذوا إلا ما قدر لهم أن يحصلوا عليه ..

ما الفارق بيني وبينهم إذن.. لا شيء، فأنا أعيش.. أحيا.. يمر بى ليل ونهار.. يمر بي شتاء وصيف.. ترسم فوق جسدي ونفسي ومشاعري السنون و الأيام فتغيرني و تصيرني كل يوم إنسان آخر .. و هم كذلك .

ألم ألتقي منذ آيام قليلة بتلك الفتاة التي كانت جارة لنا يوما و كنت قد عشت بيني و بين نفسي قصة عشق لها أخفيتها عن كل من أحاط بي .. حتى إنني لم أبح لها و لو بمجرد كلمة.. أو نظرة.. أو لمحة عن هذا الحب .. كنت أتجاهل مشاعري و أهمل عشقي قاصدا .. لست أدري لماذا ؟

وكنت إن التقيتها (كنت ألقاها مرارا بحكم الجيرة) أتصنع التصرفات الطبيعية العادية و أحادثها كمن يحادث صديقا.. حتى أنها بعد فترة ضاقت بي فكنت ألاحظ أنها تتحاشى أن تلتقي بي فتبعد نظراتها حين تلقاني بطريقها و تمضي و كأنها لا تراني ..

آه.. سامحوني.. سأكمل لكم العبارة.. ألم أقابل تلك الفتاة (هي امرأة ناضجة الآن.. أنيقة.. رشيقة.. تبدو عليها علامات الثراء والنعمة) فنظرت إلىّ وأنا أحاول أن أعرفها بنفسي.. نظرت إلى نظرة غريبة تجمع بين الاستنكار و التعالي .

و تساءلت عمن أكون.. أجبتها.. أنا فلان.. جاركم القديم، قالت و قد أعرضت و همت بالانصراف عني.. كيف حالك.. أرجو أن تكون بخير .. وانصرفت وكأنما انصرفت عن رف من تلك الأرفف الكثيرة التي تملأ المكان و التي مرت بها .. فمرت بي أنا أيضا و كأني أحدها .. ثم انصرفت .

تابعتها بنظري .. اختفت .. كما اختفت من قبل ذكرياتي .. آه يا ذكرياتي .
أمسكت القلم.. إذا لم أكن أستطيع أن أكتب قصصا و روايات.. لأكتب ذكرياتي .. لي ذكريات كثيرة .. و من منا بلا ذكريات ..
نعم فلأكتب ذكرياتي ..
سأكتب الآن.. سأكتبها.. ماذا سأكتب.. بأي شيء سوف أبدأ.. ما هو الشيء الذي ترك بداخلي .. بقلبي ومشاعري و جسدي أثراً فأكتبه.. ما الذي أثَّر في.. ما الذي أثرت أنا فيه.. ما هو العمل الذي قمت به فأفتخر أني فعلته.. ما هو الدور الذي أديته في الحياة فأثنى عليه من عرفني.. أو.. ما هو الحدث الذي عايشته فظل زمنا عالقا بروحي وفكري.. من هم الأشخاص الذين أتذكرهم فلا أنساهم.. ما هي صورهم التي لا تضيع أبدا من ذاكرتي.. ما هي تلك الأحداث التي عشتها فتثير فيّ الشجون كما يقولون أو تحرك في الأحزان؟ لا أذكر.. لا أذكر.. حتى الذين فارقوا الحياة من أهلي.. لا أكاد أشتاق إليهم .. لا أكاد حتى أراهم في منامي ..
ارتفع صوت التلفاز .. لقد حولت زوجتي الآن قناة التلفاز إلى قناة الأغاني القديمة و هي إن حولتها إليها رفعت الصوت كثيراً .
-أخفضي صوت التلفاز ..
حاولت أن أصرخ فيها أن أخفضي صوت التلفاز ..
أصرخ فيها ؟! أنا ؟!

و منذ متى ؟.. تحركت قليلا نحو شباك الغرفة .. أحاول أن أنظر إلى لا شيء خلاله.. أهرب من صوت التلفاز العالى.. أهرب.. أهرب.. أهرب.. من لا شيء و إلى لا شيء ..

أنظر إلى لا شيء.. وأدقق النظر في لا شيء.. أحاول أن أتظاهر .. أتظاهر بأني أفعل شيئا .. أو أحدث أثرا.. أحاول.. و أنتم تعرفوني محاولاتي قصيرة.. محاولاتي ضعيفة .

ربتت فوق كتفي يد طرقت عليه .. استدرت .. قالت زوجتي :

-هل أزعجك صوت التلفاز العالي ؟

قلت: أبدا أبداً .. إنها حتى أغنية جميلة ..

قالت: هل فعلا أعجبتك ؟ لم تقل لي قبل ذلك .

أنا حتى الآن رغم كل هذه السنوات لا أعرف ما يعجبك و ما لا يعجبك .

قلت في نفسي و بصوت لم يسمعه غيري إلا أنه زلزل كياني و تردد صداه مدويا داخل جنبات نفسي :

وأنا أيضا .. حتى أنا لا أعرف ما يعجبني و ما لا يعجبني.

****

أنت حبيبي

لست حبيبي

منذ عام تقريبا دخل سامي إلى حارة الجنايني.. تلك الحارة الضيقة المسدودة .. بدايتها تطل على شارعه الذي يقطن به ونهايتها المسدودة يقبع فيها ضريح الشيخ الجنايني ببساطته وخلوه من أي مظاهر تميزه أو تعظمه.. ضريح بسيط يرتفع عن الأرض مقدار متر واحد ثم قبة صغيرة بارتفاع مترين مستنده إلى جدار يسد الحارة، فهو نهاية بيت آخر في حارة مقابلة. و فوق الضريح يتقافز أطفال الحارة ليل نهار، فهي بالنسبة إليهم ملاهيهم التي يرتادونها بغير تكلفة.. والضريح بالنسبة لأهل الحارة لا يعني شيئا أبداً.. فهو جزء من الحارة اعتادوا على شكلها هكذا به.. لا يعرفون حتى شيئا عن صاحبه إلا أن اسمه هذا توارثوه جيلا بعد جيل.. يغلف الفقر والجهل جنبات الحارة، يقطنها عدد صغير من البيوت.. تعيشون كأسرة واحدة، إلا أنها أسرة كثيرة الخلاف.. كثيرة المشاحنات.. سريعة الغضب والانفعال لكنها سريعة العودة والصفاء.. إذا تشاحنوا ظننت بينهم تارات بعيدة.. لكنهم يعودون بعد وقت قصير فيتصالحون و يجلس رجال الحارة أمام أبواب البيوت يدخنون الشيشة، وتجلس على الأرض بجانبهم نساؤهم وينطلق الأطفال يلهون ويلعبون و يتقافزون هناك صعودا و هبوطا فوق قبة الضريح .

كانت هذه حال حارة الجنايني التي عاش فيها الشاب سامي عام تقريبا بعد أن تزوج فتنة حسناء الحارة و ابنة أغنى رجل فيها، المعلم شحاتة عبد ربه صاحب عربات الكارو والذي يعمل عنده عدد من رجال الحارة .

وإذا كانت البيوت في الحارة من طابق واحد يحتوي غرفة أو غرفتين تحصران بينهما ردهة مفتوحة على السماء.. فلقد كانوا من الفقر بحيث لا يستطيعون أن يغطوها بسقف يحفظها من الشمس والمطر؛ لكنها بالنسبة إليهم مصيفهم و أيضا مجلسهم ومضيفتهم، إلا أن المعلم شحاتة عبد ربه له بيت من طابقين .

لقد صنع للردهة المفتوحة سقفا وأقام بالدور العلوي غرفتين أخريين فكان مميزاً عنهم ببيته العالي.. و هكذا وصفت فتنة لسامي بيتهم ليستدل عليه حين يجيء إلى حارتهم ليخطبها من أبيها .

و هكذا وعدها سامي .. و دخل الحارة أول مرة منذ عام و بصحبته أخوه الأكبر و أخته المتزوجة بعد أن رفض والده و والدته الذهاب رفضا قاطعا .. بل رفضا هذا النسب منذ البداية .. فكيف لسامي عبد السلام طالب السنة النهائية بكلية التجارة وابن الاستاذ عبد السلام المدير العام لأحد الدوائر الحكومية و الأخ الأصغر للدكتور سعيد الطبيب بمستشفى المدينة و للمحاسبة فوزية التي تعمل بأحد البنوك؛ كيف له أن يتجرأ و يفكر فقط في أن يتخذ فتنة ابنة المعلم شحاتة صاحب عربات الكارو والذي كان من

قبل يعمل على إحدى هذه العربات التي يجرها حمار و يحمل البضائع على كتفه لتوصيلها .

كيف له أن يفكر و يطلب من أبيه أن يذهب ليخطبها له تمهيدا للزواج بها .. الحب .. أي حب هذا كيف عرفها و تعلق بها ..

قال سامي للأسرة التي اجتمعت لتناقش الأمر :

- صحيح أن فتنة لم تكمل تعليمها، لكنها فتاة ذكية بالفطرة .. صحيح أنها تسكن في حارة الجنايني لكنها مختلفة عن أهل الحارة .. فهي جميلة .. رشيقة .. مهندمة .. دعونا من التاريخ و الأصل و المهنة . أنا سأتزوج منها وليس من أبيها أو ماضيها أو أفراد حارتها .

قال الدكتور سعيد :

-لكن الإنسان لا يعيش بمفرده و لا يكون عالما منفرداً خاصا به فنحن مجموعة مؤثرات تشكلنا وتتحكم في تصرفاتنا.. أخلاقنا.. أحلامنا.. تعاملاتنا.. فكيف تساوي بين الجاهل والمتعلم.. وبين الشريف والوضيع .. و بين الخلوق و السفيه البذيء .. كيف لك أن تمحو تأثر الابن بما عاش عليه سنوات بين أفراد عائلته.. و مكان إقامته .

ثم تدارك الدكتور سعيد حين رأى تعبيرات الضيق ترتسم فوق وجه أخيه سامي:

- أنا لا أسخر من أحد و لا أقول نحن أفضل.. و لكن لهم ما يناسبهم فيستطيع التعايش بينهم و التفاهم و التناغم معهم.. التناسب يا سامي ..

التوافق الأخلاقي و الأسري و المادي أيضا والتعليمي و البيئي.. كل = ذلك يؤدي لزواج ناجح .. إلى تكوين أسرة قوية.. متفاهمة .

و انتهى كلام الدكتور سعيد وكأنما كان يحادث نفسه وكأنما كانت أذن سامي مغلقة و بصره عليه غشاوة .

قال الأب الأستاذ عبد السلام :

-أسمعت ما قال أخوك يا سامي ؟

وقف سامي منتصبا.. وأبدى بعض الغضب و هو يقول :

-و الحب و المشاعر والأحاسيس.. ألسنا جميعا بني آدم.. أين إنسانيتكم ؟ من ذا الذي يختار أباه.. بيئته.. ظروفه المعيشية.. تنظرون إلى الأمر نظرة ما سيقول الناس عنا.. تهتمون برأي الناس من أقاربكم ومعارفكم وجيرانكم؛ ولا تهتمون أبدا بمشاعر ابنكم وأحاسيسه ومستقبله ورضاه ..

قالت الأم :

- كلامك يا سامي كلام المسحور .. نعم أنت لا ترى شيئا و لا تسمع أحدا .. أنت في عالم آخر.. سحروا لك يا سامي .. فأنت لا ترى الحقائق الواضحة.. و لا تعي المفاهيم البينة .. أنت يا ولدي لا تناسبهم و هم لا يناسبونك .

و قامت أخته لتجلسه و تجلس بجانبه و هي تربت بحنان فوق رأسه و كتفه فجلس.. و امتد النقاش و طال الجدال، إلا أن سامي لم يفتأ أن يردد أنه لا

يريد زوجه إلا فتنة و أنه سوف يترك البيت و ربما حاول الانتحار إن هم حرموه منها و لم يحققوا له ما يريد و يطلب .

و كان الحل الوسط و الذي اقترحه الدكتور سعيد :

- إذن فهي خطبه فقط لتقف على حقيقة الإختلافات الكثيرة و البينة بين أسرتينا و التي تحول دون إتمام هذا الزواج .

و أخذ يقنع أباه و أمه بأنها ستكون خطبة فقط و تتضح الأمور

و يهدأ اندفاع سامي و حتما سيدرك خطأه .

قال الأب و قد أنهكه النقاش و قال :

- إذن تولى أنت الأمر فليس لي أي علاقة من قريب أو بعيد به، و لن أدفع جنيها واحدا و لا تحدثوني فيه = مرة أخرى إلا أن تبشروني بأنه قد تراجع عنه و انصرف عن إتمامه .

•••••

تداعت هذه الذكريات لسامي و هو يجر رجليه خارجا من حارة الجنايني التي دخلها منذ عام و عاش بين أهلها .. تداعت ذكريات كثيرة مؤلمة وموجعة تذكرها و هو يخرج من هذه الحارة غير مصغ لصوت المعلم شحاتة عبد ربه والد زوجته فتنة و هو يحث الخطى ليلحق به مناديا عليه :

- ارجع يا سامي.. تعال يا ولدي.. كل الأمور ستتحسن .. فقط ارجع معي.. عد يا سامي..

لكن سامي و هو الذي أخذ القرار أن لا يعود إلى هذه الحارة أبدا قد حث الخطى هو الآخر مبتعدا بل إنه أخذ يعدو .. نعم أخذ يعدو ليبتعد عن المكان فلا يصل إليه المعلم شحاتة و لا يسمع صوته. و اتجه صوب بيته في الشارع الرئيسي .. أسرع الخطى ليحتمي به و إن لم يطرق بابه أو حتى يدخل إليه .. لقد استند إلى حائط بيته فشعر بالإطمئنان و الراحة ..

في هذا الليل المطبق و السكون السائد استند إلى جدار بيته فشعر كأنما البيت احتواه.. آه.. أين هذا الشعور منذ عام مضى.. أسند رأسه للجدار .. نزل الدمع من عينه و كأنما يغسل روحه.. لقد عاد من غربته.. خطوات قليلة تفصل حارة الجنايني عن مسكنه لكنها بالنسبة إليه كانت آلاف الأميال.. اختفى صوت المعلم شحاتة.. واختفت صورة حارة الجنايني ببيوتها و أهلها و الضريح القابع في نهايتها .. وبدأت تظهر في مخيلته صورة أخيه الدكتور سعيد بعد أن أدوا الزيارة لبيت المعلم شحاتة فرأوا كيف يعيش و تحدثوا مع فتنة فعرفوا كيف تفكر وحادثوا أباها وأمها والأسرة.. وألقوا التحية و هم داخلين إلى الحارة و خارجين منها على أولئك الرجال و النسوة الذين جلسوا على الأبواب يتبعونهم بنظراتهم المقتحمة و جلستهم تلك الوقحة و التي لم يغيروها مع مرور سامي و أخيه و أخته ..

في تلك الليلة وضع سعيد يده فوق كتف سامي و سار معه و أشار إلى أختهم أن تتجه هي إلى البيت بينما جلس مع سامي على مقهى قريب و أخذ يحدثه حديثا جمع بين العقلانية والحنان... بين مشاعر الأخوة و الخوف

عليه إذا أقدم على تلك الزيجة.. وأنهى حديثه بأنه يوافق أباع بأنه لا يمكن لزيجة مثل هذه أن تنجح و تدوم، و لابد لها من نهاية سريعة مع ندم أكيد.. ثم قام و ترك سامي ليفكر في الأمر مليا و يتخذ قراره .

وقد أوضح له بأنه إذا أصر أن يتم هذا الزواج فإنه سيحذو حذو والدهم فلن يشارك أبداً في أي من خطواته و لن يساعد أبداً لا مادياً و لا معنويا و لن يشارك فيه ، و ترك سامي و انصرف .

•••••

تذكر سامي وهو يستند إلى جدار بيته ذلك الحوار بينه و بين أخيه ، فوضع رأسه على الجدار و صدم رأسه بيده و هو يردد بصوت خفيض.. معك حق يا سعيد.. لقد كان معك كل الحق.. ندم أكيد و حزن عميق وسحابة من يأس و كآبة تحيطني، و داخلي مثل هذا السكون المريب و الظلام المخيف .

ضاعت سنة من عمري أتخبط فيها.. كان من المفترض أن أنهي دراستي فينفتح أمامي باب الأمل والمستقبل، إلا أنني قد أضعت كل شيء.. كل شيء حين قررت في اليوم التالي أن أتحدى إرادة أبي و أخي وأخبرتهم إن هم رفضوا الذهاب معي فسأذهب وحدي وأتم هذا الأمر وحدي.. و سأترك هذا البيت و لن أعود إليه .

نعم. ذهب سامي في اليوم التالي للمعلم شحاتة يطلب خطبة ابنته.. رحب المعلم شحاتة رغم إخباره بعدم موافقة أسرة سامي.

قال: سنكون لك أسرتك .. ستكون ابني البكر. و ستسكن هنا معي .. في الطابق الثاني، وستعمل معي أيضا.. أنت الآن واحد منا، إذا كنت ستنضم إلينا و تعيش معنا، فوجب أن نتم عقد القران اليوم.. نعم اليوم فتكون إقامتك معنا إقامة شرعية.

سر كلام المعلم شحاتة سامي الذي كان لا يدري كيف و أين سيعيش بعد أن ترك منزل أهله. ثم مسرعا خرج المعلم شحاتة ليحضر المأذون والشهود .. و في غفلة من الزمان، ووسط سحبة من المشاعر سادت المكان مشاعر فرحة لفتنة وأهلها ومشاعر تعجب للمأذون والشهود وضبابية وضياع تفكير وتركيز من سامي هكذا سارت الأمور .

وأصبح سامي زوجا لفتنة وخرج المعلم شحاتة يزف البشرى لأهل الحارة .. ويوزع الحلوى عليهم.. فلقد تزوجت ابنته من ابن مدير عام، وأخو طبيب، وجامعي سيحصل على الشهادة قريباً و ربما ساعده أبوه ليتبوأ هو الآخر مركزا مرموقا كإخوته ..

و دخلت فتنة إلى الغرفة وأغلقت الباب عليها لتنطلق و تعيش فرحتها ونشوتها، فلقد نجحت خطتها التي رسمتها بطبيعتها الأنثوية حين قررت عندما قابلت سامي بمفردها و تنزهت معه أول مرة أنه سيكون من نصيبها و ستتزوجه يوما ..

تذكر جيداً فتنة ذلك اليوم الذي كانت قد ارتدت فيه ملابس أنيقة تظهر مفاتن جسدها و خرجت تسير بالشارع لا تلوي على شيء إلا أنها تستعرض جمالها و أنوثتها و كيف تلاقت عينها بعين سامي الذي بهر بجمالها و أعجبه جسدها ، فألقى عبارات الغزل و الذي كان بداية لتلك القصة الدرامية .

إلتفتت فتنة إليه ونظرت نظرة دلال و أشارت إليه أن يتبعها إلى مكان بعيد فسار سامي بعيداً عنها يراقبها وهي تتلفت إليه بين الفينة والأخرى لتتأكد من تتبعه لها ..

فتى رشيق جميل المحيا، تظهر عليه علامات الثراء والرقي.. لابد أن أسرته من علية القوم.. مظهره يدل على ذلك وكذلك أسلوبه في الحديث حين لحق بها لأول مرة وأخبرها بإعجابه الشديد بها.. وتعرف إليها وتعرفت إليه.. رأى فيها الأنثى التي يشتهي ورأت فيه الاختلاف الجميل عن كل من عرفت من أهل حارتها وأقاربها.. تعددت اللقاءات.. ظن أنه سوف يستمتع بلقاءاته معها فيشرب من كأس الفتنة والدلال ويذوق عسل الأنوثة والجمال.. يعيش في دنيا الأحلام والهوى ليال حتى إذا ملّ، تركها كما كان يفعل في كل علاقاته السابقة. و أيقنت هي أخيراً أنها عثرت على ضالتها فما كان لبنت المعلم شحاتة أغنى أهل حارة الجنايني إلا أن تكون مميزة عن قريناتها فترتبط وتتزوج من شاب لا تستطيع فتاة من أقرانها أن تحلم فقط أن تتزوج مثله. فأخذت تقربه إليها و تغدق عليه من دلالها وأنوثتها وتنثر حوله سحر جمالها.. فانجذب إليها وتعلق قلبه بها واتجهت غرائزه

نحوها فأصبح كالأسير لديها.. و هي تقربه ثم تبتعد.. وتخبره قصصا عمن جاء يخطبها.. و تؤلف الروايات عن عزم أبيها أن يزوجها من المعلم فلان أو من قريبها علان . قصص كثيرة .. و روايات عدة و وعود من سامي بأنه لن يسمح بذلك و سوف يتقدم هو لخطبتها .

فمطالبات منها متعددة أن يفي بوعده، ثم تسير الأمور هكذا إلى أن تم عقد القران.. تساءل سامي بعد أن أغلق الغرفة عليه وعلى فتنة التي أصبحت الآن زوجته.. ماذا حدث.. وكيف حدث.. وماذا سيفعل.. إلا أن ضحكتها وقربها منه واحتضانها اياه أغلق عليه باب التفكير فيما سيكون.. والتفكير و الاستمتاع فقط بما هو كائن .

•••••

مازال سامي مسنداً رأسه إلى جدار بيته لكنه شعر مع تداعي ذكريات زواجه بفتنة بانقباض في صدره و ضيق في أنفاسه ، فأراد أن يسير قليلا عله يحظى بنسائم الفجر الباردة تريح أنفاسه وتوسع صدره .... سار سام .... ولكنه قد أعياه طول الوقوف وثقل التذكر فعاد مرة ثانية وجلس على الأرض بجانب باب بيته ووضع رأسه بين ركبتيه يحاول أن يخنق ذكريات أيام زواجه مع فتنة والتي بدأت تطل كئيبة حزينة.. فبعد أيام قلائل .. أصرت فتنة أن يخرج للعمل مع أبيها.. ماذا يفعل مع أبيها.. إن المعلم شحاتة لا يفعل شيئا تقريبا .

فهو خلال ساعات النهار بعد أن يصحو متأخراً من نومه ، يجلس هناك على المقهى البلدي ليراقب من يعملون عنده حين يأخذ كل منهم عربته الكارو فيمر على المعلم شحاتة قبل أن ينطلق إلى عمله.. و يظل المعلم شحاتة بعدها يشرب الشيشة و الشاي و يجري مقابلاته لتنظيم عمل عرباته و هو جالس على كرسيه في المقهى الذي يتركه مع حلول المغيب حين يعود من يعملون عنده فور انتهاء يوم عملهم للمحاسبة واعطائه ما حصلوا من نقود .

قال سامي: إذن ماذا أفعل معك يا معلم شحاته ؟

قال: ستفعل مثل ما أنا فاعل.. إلا أنك سوف تفيدني بما تعلمت في الكلية فيكون عندنا دفتر حسابات وستقرأ لي الجريدة.. وتعلمني بأحوال الدنيا.. أنت يا سامي سوف تقوم مقامي إن أنا غبت أو تعبت وسوف تكون لنا أعمال كثيرة و تجارة في المستقبل .

وسارت الأيام بسامي بطيئة.. يجلس بجوار المعلم شحاتة بالمقهى يحتسي الشاي مثله و يدخن الشيشة مثله.. بل إنه بدأ في ارتداء ما يرتدي المعلم شحاتة من ملابس.. و يتكلم مع العمال و أهل الحارة بنفس العبارات التي يتحدثون بها.. و يسر المعلم شحاته و هو يفاخر ابنته فتنة بأن سامي قد أصبح الآن بكل ما تعني الكلمة واحدا منهم. إلا أن فتنة و هي ترى هذا التحول تعترض و تمتعض و في أحيان أخرى تغضب و في أحيان قليلة تترك المكان ..

واحداً منهم يا سامي؟! مثل من يعملون عند أبي.. ترتدي ما يرتدون وتتحدث كما يتحدثون و عما يتحدثون ..

آه.. لست أنت من اخترت و من أحببت أن أتزوج.. لست أنت.. لست أنت.. و تتغير مشاعر فتنة تجاه سامي الجديد .

سامي شحاتة عبد ربه و ليس سامي عبد السلام ..

وتكثر في جرأتها معه.. و تزداد انتقاداتها له وتأخذ في التباعد عنه .. و ودت لو أنها لم تتزوجه.. ليست هذه أحلام فتنة.. و ليست هذه الحياة الزوجية التي تصورتها مع سامي.. إنه يعيش معها بنفس البيت.. بنفس الحارة .. بنفس الأسلوب .

وأدرك سامي المسافة الشاسعة بين تفكيره وتفكيرها و ما اعتاد عليه من العيش و ما يعيشه معها..

ونظر إلى أحواله و قارن مع أحوال قرنائه الذين حصلوا على الشهادة العليا.. قارن بين أصدقائه الجدد.. وجيرانه الجدد.. قارن بين مواضيع أحاديثه مع زميلات الجامعة .. و فتيات العائلة .. رأى فتنة عن قرب .. زال عنها ذلك المظهر البراق المصطنع الذي كانت تحيط نفسها به عند لقائه.. و ها هي فتنة ابنة بيتها وابنة بيئتها، وبدأت مشاعر التباعد بينه وبينها..

و بدأت مشاعر البغض و الكراهية لأسلوب حياته في هذا البيت و لكل ما يحيط به.. بدأ يكره اليوم الجديد الذي سيرى فيه غرفته وزوجته وبيته

وحارته وأهل حارته و عربات الكارو و من يعملون عليها والمقهى وكراسي المقهى وصاحب المقهى ونادل المقهى وساعات الغروب والعودة إلى البيت .. كثرت انتقاداته لزوجته.. كثرت عبارات تسفيه رأيها.. ضاق بجهلها .. كثرت مشاحناتها معه.. تجرأت عليه ..

- أنت تعيش في بيت أبي و تأخذ مصروفك من جيب أبي.. و نستطيع أن نطردك في لحظة ..

- و أنت و أهلك لا تليقون بي .. و لمَ تتصوري حتى في حلمك أن ترتبطي بمن هو مثلي.. أين أنتم و أين أنا .. هل تدركين ما أنتم عليه في بيتكم هذا .. وحارتكم هذه .. سوف أخرج منه و لن أعود إليه .

قالت: سوف تطرد منه و لا تعود اليه .

قال: إذا خرجت فلن أعود .

قالت: يوم الفرح و السرور ألا نرى وجهك .

قال المعلم شحاتة :

-اهدأوا

قالت : أخرج هذا السافل من بيتنا .

قال سامي و قد بدأ يلملم أغراضا بسيطة و وضعها في كيس :

-سوف أرحل من هنا و أنت طالق .

قال المعلم شحاتة :

-أخطأت يا سامي

قال سامي:

-بل صححت خطأي.

وأسرع بالنزول على الدرج.. و يهدئ المعلم شحاتة من غضب ابنته التي تابعت سامي بسيل من الشتائم واللعنات، قابلها سامي بإسراع الخطى للخروج من البيت و الخروج من الحارة .. تبعه المعلم شحاتة ينادي عليه :

- ارجع يا سامي .. عد يا سامي

أسرع سامي الخطا خارجا من الحارة .. ابتعد باتجاه بيته ، غاب صوت المعلم شحاتة .. و قفل راجعا حين وصل إلى أول الحارة ..

تداعت الصور سريعة أمام عين سامي و هو واضع رأسه بين ركبتيه .. أعياه التذكر.. وأرهقت فكره وجسده الأحداث و نالت من روحه و نفسه الأيام .

عام مضى.. عاد سامي إلى باب بيته الذي خرج منه ثائرا يهدد بأنه لن يعود إليه مرة أخرى ولن يدخله ثانية.. أسند سامي ذراعه المكدود إلى باب البيت.. أطال النظر الى بيته و نوافذه و شرفاته .. تلمس أجزاء الباب .. وضع رأسه على الباب.. أسند وجنته إلى الباب ...

يكاد أن يسقط من الإعياء .. لا يستطيع الوقوف .. بيد ضعيفة بطيئة أخذ يطرق الباب.. أيقظ أهل الدار.. أضيئت الأنوار

وقع الخطى نحو الباب من الداخل.. كاد أن يسقط ..

فتحت أمه الباب .. ارتمى في حضنها .

نور الصباح

نور الصباح

كانت هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها إلى المعلم طلبة عمران أكبر متعهد للأفراح في بلدتنا الصغيرة.. و هو رجلٌ لطيف الحديث، حاضر النكتة، سريع البديهة و لكنه ذو ملاحظات جارحة لمن يجلس إليه فلا يكاد أحدٌ ممن حوله يسلم من لسانه.. و إذا كان من حوله من أعضاء فرقته الفنية تلك، مضطرين – بحكم عملهم لديه- أن يتحملوا تلك الملاحظات أو في أحيان كثيرة التظاهر بالإعجاب بها، و إطلاق ضحكات إستحساناً منهم لروح المعلم المرحه؛ إلا أنني لم أكن مضطراً أن أقبل ذلك حين أبدى بعض التسفيه والتنكيت على كلمات أغنية شعبية قدمتها له ليعدها للتقديم في حفلاته بعد أن أعيتني المحاولات أن أصل بالأغاني التي أؤلفها إلى من يهتم بها أو يلتفت إليها. فأقنعني صديقي سعد –الابن الأكبر للمعلم طلبة- وأحد أعضاء فرقته أن أقدم تلك الأغنيات للمعلم طلبة فيلحنها هو بطريقته السمعية العفوية، و تغني في الأفراح التي تقام ببلدتنا و البلاد الصغيرة المجاورة التي تحي فرقة طلبة عمران أفراحها .. لم أتحمل إذن تلك الكلمات الجارحة التي انتقد بها المعلم طلبة كلمات الأغنية والذي ظن أنني سأقبل مزاحه الثقيل كما يفعل أعضاء فرقته معه.. إلا أنني شعرت بغضب كتمته بصعوبة و لكن بدا ذلك على تعبيرات وجهي واضحا،

و قمت على الفور من مقامي معه و تركت مجلسه حتى بدون سلام أو وداع .

•••••

في اليوم التالى جاءني صديقي سعد معتذرا عما بدر من أبيه معلِّلاً ذلك بأن هذا طبعه و هذه طريقته التي درج عليها و من الصعب أن يغيرها، و أن أباه طيب القلب سليم الطوية لا يقصد إهانة لى أو استهانة بكلمات الأغنية، و أضاف بأنني حين أتعود على طريقته تلك و يتعود هو علىّ أيضا، سوف لا أغضب كل هذا الغضب، و بأننا –أي أنا و المعلم- سنكون صديقين و هو يدعوني لأشرب معه كوبا من الشاي في بيته هذه المرة، وليس بمقر الفرقة .

وبالفعل صدقت توقعات صديقي سعد، وأصبحت و المعلم طلبة أصدقاء لا يستطيع (كما يردد دائماً) أن يتحمل غيابي عنه يوماً و أنا كذلك كنت أشعر أن يومي ينقصه شيء إذا لم ألتق به وأجالسه عدة ساعات، وأصبحت الأغاني التي أكتبها ثم يلحنها هو بطريقته قاسما مشتركا لبرنامج عروض الفرقة ..

واقترحت عليه و أنا أرى فيه ممثلا بارعا، وكذلك بعض أعضاء الفرقة، أن تكون هناك فقرة تمثيلية قصيرة كوميدية، فاستحسن الاقتراح، وبدأ بتنفيذه و أصبح للفرقة سمتا مميزا و انتشر صيتها و راج عملها و أصبحت

مقصداً لمن ظن أنه يملك الموهبة .. من الرجال للغناء والتمثيل و من الفتيات للغناء و الرقص ..

وكانت الحاجة عطيات زوجة المعلم طلبة هي من تتولى اختيار و تدريب الفتيات، و قد حرصت دائماً في اختياراتها أن تكون الفتاة رشيقة القوام وذات جمال متواضع، فقد كانت تخشى على زوجها و ابنها من أن يقع أيَّاً منهم في حبائل إحدى تلك الفتيات.. ولكي تعوض قلة الجمال لدي من تختارهن ؛ كانت تضع المساحيق الثقيلة فوق الوجوه و تختار ثيابا أكثر إغراءً لأعين الرجال فلا تستطيع العين إلا أن تزيغ باتجاه الجسد غير عابئة بقبح أو جمال ..

إلا أن المعلم طلبة كان له إختيار مميز لفتاة تدعى امتثال تمتلك جسدا ممشوقاً ووجهاً جذابا.. ليس جميلا ولكنه مميز وجذاب.. أما طريقتها والتي قدمت بها نفسها للمعلم فكانت غريبة و فعالة.. فلقد كان بيتها قريبا من مقر الفرقة فكانت بين وقت و آخر تأتي بأنواع مختلفة من الطعام لتهديها إلى المعلم طلبة.. الذي أصبح بعد ذلك ينتظرها انتظار تعوُّد، و لا أقول انتظار عاشق.. ثم مرة بعد مرة تطلب منه أن يسمعها فهي هاوية للغناء، وصوتها لا بأس به.. ثم و في خبث أنثوي تقول وأجيد الرقص أيضا. مما جعل المعلم طلبة مقتنع بأنها ستكون إضافة جديدة وجيدة لفرقته .. لكنه لا يستطيع أن يتخذ القرار وحده. لابد من انتظار موافقة الحاجة عطيات و إلا فلن تسير الأمور كما يهوى و يحب، فما كان منه إلا أن طلب

مني أن أقدم الفتاة امتثال إلى الحاجة عطيات و كأنها (أي امتثال) هي التي استعانت بي لأقدمها للحاجة عطيات ..

ولما كانت الحاجة عطيات تحمل لي ودّا خاصا. إذ تراني مختلفا عن تلك الجوقة التي تحيط بزوجها .. ولمعرفتها أنني أدرس بالجامعة و أني أؤلف تلك الأغاني التي تقدمها الفرقة، فإنها رحبت بامتثال بعد أن رأت وجهها وقوامها و سمعت صوتها.. واقترحت على الحاجة عطيات أن أؤلف لها أغنية تقدمها للناس وتعهَّدت بأن تغير من شكلها وهندامها وطريقة كلامها ومشيتها .

وقالت لي الحاجة عطيات :

- دع هذه الفتاة إمتثال لي، و سترى كم ستتغير على يدي.

وعندما حازت إمتثال على قبول الحاجة عطيات هرعت إلى يد الحاجة تقبلها و تقول :

- ستجدينني خادمة لك.. مطيعة لكل ما تأمرين به..

نقلت إلى المعلم طلبة خبر قبول الحاجة عطيات لامتثال فاستبشر وابتسم، و لست أدري هل هو مسرور لإضافة مغنية وراقصة لفرقته - كانت الفرقة بحاجة إليها- أو هو فرحٌ لأن تلك الفتاة ستكون أمام ناظريه قريبة منه طوال الوقت ..

سارت الأمور بعد ذلك سلسة بسيطة، فلقد كانت امتثال ذكية سريعة الإستيعاب و التعلم، رغم أنها لم تنل إلا قسطاً بسيطا من التعليم تركته

بعد سنوات قليلة لظروف خاصة كما قالت، فهي لا تكاد تعرف القراءة و لا تعرف إلا أن تكتب اسمها بصعوبة و جهد، لكنها كانت تملك الموهبة للرقص والغناء و لديها الجراة الكافية لتواجه الجمهور دون خجل أو تلعثم .

إلا أنه كان من المحتم أخذ الموافقة من أهلها لكي تعمل مع الفرقة، ومرة ثانية أوكل لي المعلم طلبة هذه المهمة فذهبت إلى ذلك العنوان بالقرب من مقر الفرقة في حارة ضيقة فقيرة ودخلت بيتا قديما متهالكا لأتحدث مع أبيها، و الذي عرفت أنه يمتلك عربة لعمل الساندويتش يقف بها على ناصية الحارة (و يبدو أن الطعام الذي كانت تحضره أمتثال بين فترة وأخرى لإفطاره كان من صنع أبيها). فأبدى الأب موافقته بشروط أن يكون العمل يتميز بالاحتشام و أن لا تطيل السهر. و أن يكون المقابل المادي منصفا. فوعدته بذلك و أنا أدرك تماما أنه لم يكن من المعقول أو المقبول أن يقول غير ذلك .

كانت هذه إذن هي البداية للمغنية والراقصة إمتثال عفيفي، و قد كان هذا اسمها الذي لم يرق للمعلم طلبة والحاجة عطيات فأخذا وكنت معهم وامتثال نفكر في اسم فنّي لها. وكنت قد أنهيت أغنية تقدمها كباكورة أعمالها تبدأ هكذا ..

أنا اسمي نور الصباح　　زينة و ست الملاح
كل الي شافني يقولك　　لذيذة زي التفاح

فما كان من المعلم طلبة إلا أن هتف صائحاً.. وجدتها.. وجدت الاسم .
سيكون اسمك يا امتثال (نور الصباح) .
استحسنا الاسم و بدا وقعه في آذاننا جميلاً و موسيقياً ..
الراقصة و المغنية الجديدة الموهوبة (نور الصباح) .

.....

ذاع صيت نور الصباح مع فرقة طلبة عمران و اصبحت فقرتها هي الفقرة الرئيسية ، و اسمها هو الاسم المطلوب لإحياء أي حفلة في البلدة و البلدان المجاورة ..
وكان آخر عهدي بها قبل أن أسافر للعمل في بلد عربي كمدرس للغة العربية أن شاهدها مسؤول بفندق كبير بالقاهرة في إحدى الحفلات وكانت النية منه أن يتعاقد معها لتؤدي فقرة راقصة في الفندق الذي يديره .

.....

إيه يا دهر و آهٍ أيها العمر.. ما أسرع مرور الأيام و الأعوام، ثلاثون عاما مضت و عدت أخيراً من غربتي إلى أرض بلادي.. رغم كل شيء فأنا أحب كل شيء في بلدي.. هواءها.. شوارعها.. أهلها، يجذبني كل ما فيها إليه.. أنا لا أقف فاحصاً أو ناقداً لما فيها.. فقط أشعر بالأنس والطمأنينة والانشراح حين تطأ قدمي أرضها .

حين فُتح باب الطائرة بعد وصولنا لأرض المطار وضعت قدمى على أول درجة لسلم الطائرة و رأيت مبانى المطار و غمر وجهي نسيم بلادى . شعرت بكل ذلك و قلت لمن حولي حين جلست بينهم في ردهة شقتنا الجديدة التي قد اشتراها أبنائي لي و أعدوها حين علموا بأنني لن أعود للإغتراب مرة أخرى ، و سأمكث ما بقى لي من عمر بينهم .. و الله لا يعادل مال الدنيا ما تشعر به في بلدك و أنت بين أهلك و أقاربك و جيرانك و أنت تتمتع بكل ما حبا الله به هذه الأرض .. كل شيء فيها جميل .. ليس أجمل ما في الدنيا ولكنه بالنسبة لي أجمل ما في الدنيا.. جلسنا نضحك وأقص عليهم ذكريات اغتراب ثلاثين عاما قطعتها بعض أيام الأجازات.. و كيف قدر الله لي بعد التخرج من الكلية مباشرة أن أذهب للعمل كمدرس للغة العربية في إحدى الدول الشقيقة وكيف سارت الأعوام لا أشعر بمرورها أو عددها إلا أن التغيير الذي كنت ألاحظه حين أقضي الإجازة السنوية كان بسيطاً وصغيرا ولكن بعد ثلاثين عاما رأيت هذا التغير كبيرا وشاسعا ..

لم أعد أنا ذلك الشاب الذي تخرج منذ مدة بسيطة من الكلية يفكر كيف سيكون مستقبله، بل هؤلاء هم أولادي. نعم أولادي، قد كبروا وأنهوا دراستهم ويفكرون هم الآن وأفكر معهم كيف ستكون أحوالهم وأعمالهم ومستقبلهم ..

كل شيء تغير .. شكل الشوارع و البنايات و الناس .. نظرت حولي لما أعدوه لي.. شكل الديكور و الموبيليا والملابس .

كل شيء قد تغير و هذه هي سنة الحياة ..

إلا أن ما استوقفني فعلا و شعرت معه بأن حجم التغيير كبير و مفزع ما كنا نشاهده على شاشة التلفاز . حيث تابعت معهم برنامجا ترفيهيا إستلفت نظري فيه مقدمة البرنامج .. و تساءلت هل هذه هي فعلا ؟ إن وجهها يحمل شبهاً كبيراً بها وكذلك طريقة حديثها .. انها تماثل إلى حد كبير طريقة فتاة أذكرها في حديثها و نطقها للكلمات.. غير أنه من المستحيل أن تصبح مقدمة برامج ، فتساءلت متعجبا !

فأشار لي و قد أدرك ما اعتراني من دهشة :

- نعم .. هي هي من تفكر أن تكون يا أبي .. لقد أخبرتنا والدتي عن القصة التي رويتها لها عن تلك الفتاة التي كنت تؤلف لها الأغاني و توسطت لدي المعلم طلبة و الحاجة عطيات في بلدكم أن تعمل راقصة و مغنية .

قلت: نور الصباح ؟ ممكن ؟!! لقد كان آخر عهدي بها أن عُرِض عليها العمل بفندق كبير بالقاهرة كراقصة، و أعتقد أنها بدأت العمل به بعد أن سافرت أنا.

قالوا: نعم نور الصباح

قلت: أصبحت بهذا القدر من الشهرة.. ممكن كراقصة أو فنانة استعراضية، و لكن مقدمة برامج .. تستضيف و تبدي آراء و تقيم حواراً؟! مستحيل..

قالوا: بل ممكن.. أنت تراه الآن أمامك.. و مثلها كثيرون، مرة كضيوف

في برامج أخرى و في برامج أخرى كمقدمين لها .
خرجت إلى الشرفة أنظر إلى المباني والشوارع و الأضواء ..
أحاول أن أستجمع أفكاري و مشاعري.. أحاول أن أجد تفسيرا لما أرى ..
نعم.. التغيير سنة الحياة.. و كما تغيرت أحوال الناس والدول والمجتمعات في كل الدنيا، لابد أن تتغير و تتبدل أحوالنا و لكن ...
نور الصباح ؟
نور الصباح تصبح مقدمة برامج و مذيعة ؟
لم أستطع أن أستوعب أن يكون التغيير الذي حدث في بلدي قد وصل إلى هذه الدرجة .

****

مسرح المدينة

مسرح المدينة

توافد الجمهور على مسرح المدينة ..
العرض المفتوح.. هكذا أعلنوا.. قد تكون الليلة الأخيرة والعرض الأخير .. هكذا أعلنوا أيضا ..
أيها المشاهدين الكرام.. أنتم اليوم شركاؤنا في التأليف والتمثيل.. نظر صاحب مسرح المدينة عدنان منصور إلى صالة مسرحه ورأى عدد الجمهور الكبير و هو غير مصدق... أين هذا العدد الكبير من تلك الأعداد القليلة التي كانت تشاهد عروضه طيلة الأعوام السابقة؛ حتى اضطر أن يتخذ قراراً بإغلاق المسرح، و بأن يكون عرض الليلة هو العرض الأخير .. في تمام الثامنة .. ثلاث دقات.. فتح الستار ..
غرفة استقبال في منزل متوسط.. يدخل عدنان المسرح و يقف بالمنتصف .. بعد تحية الجمهور.. يبدأ الكلام موجهاً حديثه إلى الجمهور المتواجد :
-أسعد الله مساءكم جميعاً.. عرضنا الليلة ليس نصاً مكتوباً ومعداً مسبقا.. ستتشاركون أنتم في صياغة مسرحية الليلة.. يشاركنا بعض الممثلين المتواجدون الآن بينكم.. بين المشاهدين.. فهناك حقيقة أغفلناها كثيراً.. فأنتم نحن.. و نحن أنتم.. إذا قدمنا شيئاً فيجب أن يكون وحيه منكم و مرده إليكم.. اليوم مثلا، و بعد أن ضاقت بي السبل وعجزت بعد

صبر ومعاناة شهورا طويلة أن أفي بمتطلبات المسرح وأجور العاملين، قررت قرارا أريد أن تشيروا عليّ بصحته أو خطئه .. لكن انتظروا قليلاً حتى أوضح لكم الأمر .

يذهب و يجيء ثم يكمل حديثه :

-أأقص عليكم حكايتي من بدايتها ؟ أم الجزء الأخير منها فقط ؟

أحد الحاضرين :

-لقد جئنا لنشاهد عرضاً مسرحياً يسرّى عنا و يسلينا، ما لنا و حكايتك وأمورك الشخصية ؟

مشاهد آخر (أحد الممثلين) :

-بل نريد أن نعرف الحكاية من أولها .. فإذا لم نكن نعرف البداية، فلن يكون رأينا الذي يريده منا صائبا ..

ينظر إلى الجمهور.. يوافقه بعضهم و يعترض آخرون .

يتدخل عدنان و يكمل حديثه :

- الهدوء رجاءً، عندي حل وسط.. ما رأيكم سوف أقص عليكم الحكاية بأسلوب مختصر كثيراً لكنه يفي بالغرض . مارأيكم .. أتوافقون ؟

همهمة من الحاضرين تنبئ أنهم وافقوا ..

عدنان: تعرفونني جيداً.. أو يعرفني بعضكم.. أو يعرفني الأكبر سناً منكم .

أحد الحاضرين ساخراً :

-أستاذ عدنان ، هل هذا هو الاختصار ؟ بداية القصيدة ...

عدنان: معك حق فلندخل في الموضوع إذن.. لقد ورثت أرض هذا المسرح عن أبي.. و لما كنت هاويا للمسرح، بل مجنوناً به، فلقد طرأت لي فكرة أن أضع كل ميراثي من الأرض و المال في إنشاء هذا المسرح.. وأسميته مسرح المدينة.. قالوا « مدينتنا صغيرة و لا تتحمل أن يكون بها مسرح »، ولكنني كنت قد عقدت العزم على ذلك .. استعنت بخريجي معهد الفنون المسرحية من أصدقائي ، و تم عمل المسرح و اكتمل الحلم و رأيته أمامي حقيقة كانت استجابتكم في بداية الأمر جميلة ومشجعة .. وظللنا هكذا سنين طويلة.. و أصبح هذا المسرح من معالم المدينة.. أليس كذلك ؟

أحد المتفرجين :

-يا أستاذ عدنان نعم .. أنا معاصر لذلك و شاهد عله ذلك، بل إنك حببت إلينا المسرح، ولكم شاهدنا عليه من المسرحيات الهادفة والمسلية.. وتعرفنا من خلاله على توفيق الحكيم .. ونجيب الريحاني .. وكتاب آخرين مصريين و أجانب

عدنان: أرأيتم أيها الشباب.. كثير من آبائكم و أهليكم عاصرني وشجعني .. واستطاع كل هاو أو دارس للمسرح من بلدتنا و البلاد المجاورة أن يضيف لمسرحنا و يضيف مسرحنا إليه .

ممثل يجلس بين الجماهير :

- ما كل هذه الحكاية الطويلة.. أستاذ عدنان: وعدتنا بالاختصار.. هل هذا هو الاختصار ؟!

عدنان: معذرة يبدو أنني قد أطلت

ممثل آخر:

-أستاذ عدنان ، إنك فعلا قد أطلت .

عدنان: اذن سندخل في الموضوع الآن مباشرة

ممثل آخر:

-سنسمح لك ببعض الاطالة فالوقت مازال مبكراً وبصراحة .. لقد جئنا للتسلية واستهلاك بعض الوقت، فليس هناك من شاغل يشغلنا أو أمر هام ينتظرنا.

عدنان: أرأيتم .. هذا ما أردت أن أصل إليه.. و هذا ما أوصلنا إلى ما نحن فيه.. جمهور جاء للتسلية و ضياع الوقت مع أن المسرح رسالة وهدف وتوعية .

ممثل: كان .. كان يا أستاذ عدنان.. و هل هناك الآن مسرح .

عدنان: أقول لكم الحق، لست أدري .. أنحن ، أي الفنانين و أهل المسرح، من أضعناه .. أم أنتم أيها الجمهور من أضاعنا و أضاع المسرح .

ممثل: بل أنتم .. أنتم البداية.. انتم من يقدم النص المسرحي والعمل المسرحي، و ظللتم تنحدرون بنا مستوى بعد مستوى، بداعي أن الجمهور يطلب ذلك .. يطلب ماذا ؟ تسلية .. لم تكن حتى تسلية .. إسفاف

واستظراف و أحيانا خروج على التقاليد و الادب.. ماذا كسبتم .. هل ظل الجمهور معكم .. هل اعتمادكم على مثل تلك النوعية أفادكم ؟

عدنان: و لكن أنتم أيضا.. أنتم الجمهور والمشاهدين انصرفتم عن النصوص الجيدة و الفن الراقى .. فاضطررنا للتنازل كي نستمر .. أتعرفون كم من الخسائر تحملنا حتى نستطيع أن نستمر ؟

مشاهد من الحضور :

-أستاذ عدنان، أنت تحاول الهروب من المسؤولية وتحميلها للجمهور.. مع إن المفروض العكس .. أنتم بأساليب مختلفة في التأليف والاخراج والتمثيل.. أساليب إبداعية خلاقة، باستخدام مؤلفين واعدين وأجهزة متطورة وتقنيات حديثه، كان من الممكن أن تجذبوا المشاهدين و ترتقوا بأذواقهم.

عدنان: ألست من الممثلين العاملين معنا بالمسرحية ..

المشاهد: أنا أحد الحضو .. واحد من الجمهور.. لكنى قارئ و مهتم بالمسرح .

ممثل بين الجمهور :

-أستاذ عدنان .. أهذه مسرحية مرتجلة أم أنها ندوة ونقاش ؟

عدنان: فقط أتساءل أنا أيضا مع هذا المشاهد الذكي سؤالا ظل يحيرنى كثيراً قبل أن أتخذ قراري .. أنحن أهل المسرح من خذلكم .. أم انتم أيها المشاهدون و الجمهور هو من خذلنا ؟

مشاهد: أستاذ عدنان، فكر في السؤال على مهل.. في أوقات فراغك و ليس الآن.. أين الاختصار يا أستاذ عدنان، ما هو الهدف من الارتجال المسرحي اليوم ؟

عدنان: ذكرتني و أنا الذي كنت أحاول الهرب من الواقع و نسيان الحقيقة المرة.

ممثل (ضمن الحضور) :

- آه .. أيها الحضور .. لقد أثرتم أشجان الأستاذ .

عدنان: والله إنها لأشجان .. لا تتعجبوا .. إنها أشجان زوجتي سبب كل ذلك ..

و أنا أحاول منذ البداية أن أطيل الحديث معكم حتى تصل إلى المسرح فلقد وعدتها أن أتخذ القرار معها.. و في حضوركم .. ولكنها للآن لم تحضر .

ممثل من ضمن الحضور :

-النساء النساء.. و من يلتزم بموعد منهن ؟

امرأة من الحضور:

-نحن أكثر التزاماً واحتراما للمواعيد من الرجال.. و لكنه مجتمع ذكوري .. يحاول أن يظل الرجل فيه = مهيمنا.. انظروا إلى تفوق المرأة في كل مجال.. انظروا إلى أي إدارة حكومية أو مدرسة أو مشروع تديره سيدة وستعرفون معنى الانضباط و الجدية ممزوجة بلمسة رشيقة إبداعية من النساء .

عدنان: و ماذا إذا تسلطن و أصررن على رأى خاطئ و رفضن كل سبيل

للتعقل و التفاهم كما فعلت معى زوجتي أشجان ؟
تدخل المسرح زوجته أشجان .. هي ممثلة معه في المسرح و لكنها أيضا زوجته في الحقيقة .
تحيي أشجان الجمهور الذي صفق لها خاصة النساء .
أشجان ، موجهة حديثها للجمهور:
-الحمد لله .. يبدو أنني قد وصلت في الوقت المناسب قبل أن يسرد عليكم القصة من وجهة نظره هو و يسيء إلىّ ، سأقص عليكم أنا الحكاية .
ممثل من الحضور:
-و لكن بالله عليكِ تختصري
مشاهد: و لا يكون اختصارك مثل اختصار الأستاذ عدنان الذي ظل يتحدث معنا زمناً و لم يتطرق إلى الموضوع .
أشجان: لا سأريكم الآن الفرق بين الرجال و النساء.. مع أنهم يتهموننا بكثرة الحديث و زيادة الكلام في مواضيع تافهة؛ إلا أنني سأثبت لكم اليوم عكس هذا .
الممثل: سنرى .. سنرى
أشجان: نعم .. سوف نرى.. ألست أنت الممثل معنا في المسرحية.. رجلٌ مثل عدنان و تقف دائما معه و تؤيد رأيه ..
امرأة من الحضور :
-يا مدام أشجان .. قصي علينا ونحن نؤيدك و معكِ

أشجان: آه .. وجدت من يناصرني .. و النساء المتواجدات جميعاً معي ..

أصوات النساء :

-نعم .. نحن معك .

بعد برهة

امرأة: و لكن اختصري الحكاية ..

أشجان: الحكاية باختصار .. بعد خمسة و عشرين عاماً زواجاً من هذا الشخص الذي أمامكم .. ذقت فيها ألواناً من الشقاء و التعب والعناء والعناد .. وضيق الحال .. و أنا صابرة أسانده و أساعده و أدبر له و معه حياتنا وأحافظ على أبنائنا الذين أصبحوا شباباً الآن.

فاض بي الكيل.. لم أعد أستطيع أن أكمل الحياة معه، لقد خيرته بين أمرين لن أتراجع أبداً أن يختار واحداً منهما .. الأول أن يتوقف هذا المسرح فوراً و يقام مكانه مشروع تجاري فنستطيع أن نحيا من عوائده حياة رغدة ليس بها كل هذا الشقاء الذي عانيناه.. مشروع يعمل به ولدانا اللذان يبحثان عن عمل ليبدأوا هم أيضا حياتهم. و من خلاله يستطيعان أن يوفرا تكاليف الزواج وتبعاته الكثيرة والثقيلة التي تعرفونها جميعا.. شقة وأثاث وتكاليف أخرى كثيرة.. فهل أنا مخطئة.. اننا لو استطعنا بيع أرض هذا المسرح فقط = حتى دون أن نقيم مشروعاً سوف تفي بالغرض و زيادة .

امرأة: كلام سليم و صحيح مائة في المائة .. هذا هو التفكير الواقعي .

عدنان: و مشاعري ؟ و ارتباطي بهذا المكان ؟ و تحطيم حلم استطعت

تحقيقه والعيش فيه .. و الإنسان و رسالته في الحياة ؟
ما أضيع الإنسان بلا هدف و بدون قيم .
أشجان: و مسئولياتك و واجبك تجاه أسرتك و أبنائك ؟
عدنان: من يبحث عن العمل سيجده .. و من يكافح سيصل حتماً إلى ما يريد.. الأرزاق تحتاج إلى سعي و عمل .
أشجان: لقد ورثت هذا المكان و لم تقمه بعملك وكفاحك .
عدنان: لكل منا قدره ولكن القواعد في السعي من أجل الرزق واحدة .. يختلف الرزق من إنسان لآخر .. فالله هو المقدر له و لكن الوسائل واحدة، عمل و سعي و اجتهاد .
أشجان: و كلام و أحلام في الهواء و واقع مرير.. الدنيا تغيرت و أنت مازلت متقوقعاً في مسرحك المظلم .
الممثل: إذا كان الأستاذ عدنان غير موافق على هذا الخيار الأول ، فما هو الخيار الثاني يا مدام أشجان ؟
امرأة: نعم قولي لنا الخيار الثاني
أشجان: و هل هناك غيره ...
عدنان: انتظري قليلاً .. لقد قلت لك سوف أفكر في الأمر
مشاهد: أريد أن أسأل سؤالاً ..
عدنان: تفضل
المشاهد: هل ما نراه من مشكلة بينك و بين زوجتك السيدة أشجان،

حقيقة أم أنه نص تمثيلي ؟

أشجان: حقيقة .. اليوم كل شيء حقيقي .. هذه مشكلة حقيقية .. ومشاكل متراكمة .

سأختصر كما تريدون .. ليس هناك خيار لي إذا لم يوافق على تغيير الواقع و بيع المسرح إلا ...

عدنان: إلا ماذا ؟

أشجان: إلا الانفصال .. الطلاق .. سأدعك وحدك مع أوهامك وكآبة المكان و انتظار إفلاس سوف يرغمك أن تبيع و لكن بعد أن نكون أنا و أبنائك قد ابتعدنا عنك و تركناك وحدك .

عدنان: و لكن هناك حلول أخرى .. وسائل للخروج من المأزق غير أن نتخلى عن المسرح .. أنا إن تخليت عنه سأموت .

أشجان: عدنا إلى الافكار و الأوهام التي ضيعت منا عمرنا .

الممثل: يا مدام أشجان .. أهكذا تهون العشرة.. و هكذا يكون جزاء المودة و المحبة.. و هكذا تكون نهاية رحلة عمرها خمسة و عشرون عاما ؟

عدنان: أسمعت يا أشجان .. ألا تعرفين أنك انت و الأولاد روحي .. أهكذا تريدين أن تفارقني روحي .

أشجان: نحن روحك أم هذا المسرح الكئيب.. الاختيار لك وأظن الاختيار واضح .

عدنان « ينكس رأسه منكدا حزينا » ثم يوجه حديثه للجمهور :

-أليس عندكم لى من حل آخر.. من يستطيع منكم أن يجد لأبنائي عملاً .. أو يشاركني في إنتاج مسرحياتي و يدعمني في موقفي و هدفي ؟

مشاهد: طلقها و انهي الأمر .. من لا يقف معك في السراء و الضراء و من لا يهتم لآمالك و رسالتك .. و من همه فقط تحقيق مصالحه فدعك منه و ابتعد عنه .

امرأة من المشاهدين :

-و أنت أيضا يا سيدة أشجان .. من لا يقدر معنى الزواج و إنه ليس من المعقول ولا المقبول أن يكون كله شقاء وتعب وانتظار لأوهام لن تتحقق.. واجب الزوج أن يبحث عن سعادة زوجته وأسرته.. أن يضحي لأجلهم ويعمل لصالحهم . ما هو هدفك يا أستاذ عدنان .. أتظن أنه مهما قدمت من فن هادف و تحدثت عن مبادئ و قيم، ستؤثر في أحد من المشاهدين ؟

مشاهد: طبعا.. و إلا لما كان لكل عمل مخلص و جهد هادف نتيجة

أشجان: و هذه هي النتيجة.. لا يحضر عروضه الا بضعة أشخاص كل يوم

عدنان موجهاً حديثه للجمهور :

-ألم أقل لكم أنكم أنتم الجمهور بانصرافكم عنا و اتجاهكم للتسلية وارتضاؤكم الغث و التافة قد سببتم لنا الضرر و أوقفتم مسيرتنا .

مشاهد: أستاذ عدنان، هل هذه المشكلة مع مدام أشجان حقيقية أم أنه نص مسرحى ؟

عدنان: أبداً و الله .. إنها حقيقة .. و أردت أن تكون موضوع نص مرتجل

للمسرح اليوم علنا نجد حلاً .. أو تشاركونا رأيا أو تغير أشجان من رأيها أمامكم فأنا مخير بين أمرين كلاهما عليّ قاسي .

و لم أخرج حتى الآن برأي واضح منكم .

مشاهد: طلقها .. لن تخسر شيئا .. احتفظ بمسرحك و طوره

مشاهد: عندي مشروع مربح .. حول المسرح لقاعة أفراح فهذا هو السائد و المربح الآن .

أشجان لعدنان :

-أنا موافقه على هذا الاقتراح .. قاعة أفراح و أعمل أنا و أنت و الأبناء فيها، بل سيعمل معنا كثيرون .

ممثل بين الجمهور :

-هل تخليت عن حلمك يا أستاذ عدنان .. هل تخليت عن هدفك ؟ هل تخليت عن ماضيك و ذكرياتك ؟

عدنان: أنا لم أقرر بعد

أشجان: الاختيار الثاني مازال موجوداً و مطروحاً بقوة

عدنان موجها حديثه للجمهور :

-ما رأيكم أنتم ؟ أتوافقونهم الرأي ؟

أصوات من الجمهور :

-هذا هو الحل الواقعي

-طلقها

-استجب لرأيها و حافظ على زوجتك و أسرتك

-لقد فعلت ما تستطيع و لكن الأقدار ليست بيدنا

-من ذا يستطيع أن يقف أمام الزمن .. يزيح الزمن عن طريقه كل قديم و يقيم إحلالا و تجديداً

-تجديد للأحسن أو تجديد يهدم الجمال و القيم

-التغيير و التجديد سنة الحياة .. و كيفيته و اتجاهه يحددها أشياء كثيرة .. أشياء بيدنا و فكرنا، و أشياء كثيرة ترغمنا و تغضبنا .

عدنان: هدوءًا .. هدوءًا لم أصل معكم لرأي و حل

أشجان: لقد وافقوا على رأي أن يتحول المسرح لقاعة أفراح

عدنان: لكنني لم أقتنع و لم أوافق .. وأحتاج وقتاً للتفكير .

أشجان للجمهور :

-أليس بينكم مأذون يخلصنى من هذا المتردد

عدنان: بعض الوقت للتفكير

أشجان: الآن و إلا الطلاق

امرأة من الجمهور :

-هكذا هم الرجال .. يسوفون حتى ننسى و نسهو و لا يفون بوعودهم

مشاهد: نصيحة مؤتمن صادق .. الدنيا تغيرت يا أستاذ عدنان .. و حل قاعة الأفراح حل مناسب و إذا احتجت إلى تمويل فأنا على استعداد أن أشاركم هذا المشروع .

أشجان: أليس منكم مأذون يأتي هنا إلى منصة المسرح ؟

يخرج من بين الجمهور رجلا يشير :

- أنا أعمل مأذوناً ..

أشجان: هيا اصعد إلى هنا و أتمم أمر الطلاق .

مشاهد: أيها المأذون كن عونا على الخير .

المأذون: كنت دائماً أود أن أصعد المسرح ، فدعوني أصعد أولاً .. و سوف أنصح طبعا حين أقف هناك .

يصعد إلى المسرح ، ثم يخاطب الجمهور :

-استمعوا لى جيداً.. الزواج و الطلاق كلاهما جدهما جد و هزلهما أيضاً جد .. يقول تعالى ...

مشاهد: هل هذا وقت الخطب.. انزل من المسرح و دعهم

أشجان: بل يظل.. أين دفترك يا أستاذ

يُخرج المأذون ورقة و قلماً ثم يقول :

-نتمم أمر الطلاق أولاً وأكتب المعلومات هنا.. ثم أنقلها بعد ذلك في الدفتر .

أشجان: لا . أريد أن تتمم كل شيء .

المأذون: إذن أذهب الآن لأحضر الدفتر، و لكن .. أرجو أن يتم الأمر فوق المسرح

عدنان: دعنا الآن و اذهب .. عسى إن عدت ألا تجدنا .

يخرج المأذون

تخرج أشجان تليفونها المحمول لتتحدث فيه .. تتكلم بصوت عالى: أين أنتم .. قريبون منا .. اذن تعالوا حالاً ، إنه مازال على تردده و تسويفه .

عدنان: مع من تتحدثين ؟

أشجان: مع أولادك .. لعلهم يؤثروا فيك و يقنعوك .. هذه آخر فرصة للتفاهم معك .

عدنان: إذن ما من سبيل لإقناعك أنت !

ممثل وسط الجمهور :

-أستاذ عدنان.. أولادنا تلوي أعناقنا.. لقد أمسكت بك من نقطة ضعفك .

يدخل المسرح شابان يحييان الجمهور، أحدهما يحادث الجمهور: مساؤكم خيراً .. أرجو أن تكونوا قد أعطيتموه رأياً واقعيا مناسباً .

الشاب الآخر :

-أود أن أخبركم أننا ابناه فعلا و أن ما حدث هو مشكلتنا الأسرية فعلاً و ليس نصاً تمثيلياً

مشاهد: إذن أطيعا أباكما .. مهما كانت النتائج .

أحدهما: إنه تاج فوق رأسنا .. و نورً لأيامنا .

يقترب من أبيه ؛ يمسك يده فيقبلها :

-و لكم متطلبات الحياة و ظروفها أقوى منا.. و نحن إن وجدنا حلا آخر لما طالبناه ببيع المسرح .

أشجان: لقد وصلنا لحل آخر.. أن يتحول المسرح لقاعة أفراح و تشتركون مع أبيكم في إدارته و العمل به .

أحدهما يذهب إلى أبيه :

-إنه حل واقعي و مفيد يا أبي

يُقبِّل يده.

-وستظل رائحة المسرح موجودة وذكرياتك ومشاعرك نحوه قريبة منك .. وافق يا أبي

أشجان: هذه آخر فرصة و إلا فالمأذون قادم بعد قليل .

أصوات من الجمهور :

-وافق يا استاذ عدنان .. إكراماً لزوجتك و ولديك

صوت- تمسك بحلمك و أملك و عشقك و هدفك

صوت- دعهم يعتمدون على أنفسهم و جهدهم و عملهم ، فلقد نحتنا نحن في الصخر حتى أصبح لنا شأنا

صوت- أستاذ عدنان ، هذا أمر أسرى .. لماذا أقحمتنا فيه ؟ فلتجدوا لكم حلا بينكم .. أنا مغادر ..

هذا عرض هزلي ..

عدنان: بل انتظر حتى تعرف النهاية .

صوت: لا يبدو أن هناك نهاية

أحد الشابين :

-ستوافق يا أبي

أشجان: المأذون قادم

أحد الشابين:

-أنا أعرف أبي جيداً، عنده طاقة حنان وعطف علينا تكفي لشباب المدينة.

عدنان: طبعاً .. أنتم بعضي .. أخاف عليكم أكثر من نفسي، و أود لو أجمع ما في الدنيا فأضعه بين أيديكم

الشاب: إذن وافق يا أبى

الآخر: ودِّع الجمهور .. فهذه آخر ليلة عرض للمسرح

عدنان (ساهما شارداً) :

-آخر ليلة عرض

صوت: ماله بداية فإن له نهاية ..

أنا مغادر الآن.. إن مررت غداً و كان المسرح مفتوحاً فسأدخل.. و ان كان قاعة أفراح .. فسأحاول أن أروج لها إكراما لك يا أستاذ عدنان .

عدنان (باكيا وناظرا الى الجمهور و مطوفا بأرجاء المسرح) وبصوت ضعيف :

-سأفتقد كل شيء ..

للجمهور- سأفتقدكم .. أفتقد ضحكاتكم .. تعليقاتكم .. سخريتكم .. صوت قدومكم .. و وقع أرجلكم حين تغادرون .

شاب: إذن وافقت يا أبى ..

يحتضنه .. يقبل الابن الآخر

-: شكرا يا أبي

يحتضنه

صوت: هل انتهى العرض يا أستاذ عدنان ؟

عدنان : نعم .. انتهى العرض.. وانتهت الحكاية.. وسيتحول مسرح المدينة لعدنان منصور، إلى قاعة أفراح.

يسدل الستار و يغادر الجمهور

*****

ماردت

أو

الروح الجميلة

الجزء الأول

ماردت

أو

" الروح الجميلة "

الجزء الأول
أنيس

بلدة صغيرة .. هادئة وادعة .. و أهلها طيبون
على شاطىء البحر تقع حدودها
تسمى قرية المرجان
في تناغم جميل و محبة و ألفة
يعيش أهلها
و في كل أسبوع
هناك يومٌ يجتمعون فيه
في المساء يسهرون ، يبتسامرون
و في نهاية سهرتهم ، ينتظرون الفقرة الرئيسية
ينتظرونها في لهفة و شوق
إنها فقرة الحكواتي
يا له من رجل ظريف يسليهم و يسرِّى عنهم

له طريقة طريفة تجمع بين السرد و التمثيل
يدخل إلى الساحة كل مرة .. بطريقة جديدة .
له في فن الحكاية
طريقة محببة طريفة
وعندما يأتي إلى الساحة الكبرى
يدخل إليها كل مرة بطريقة جديدة مبتكرة
وكان هذا الحكواتي
يختار من الملابس و الصبغات
ما يناسب الحكاية
و أحياناً أحياناً
يشرك بعض الجالسين بالرواية
إلا أنه في تلك تلك الليلة الموعودة قد تأخر
و ظن كثير من الحضور بأنه لن يحضر
حتى أن بعضاً منهم قد وقف
تمهيداً لأن ينصرف
و إذا بالحكواتى يأتى من بعيد
يتقافز و يصدر أصواتاً مخيفة
يحمل في إحدى يديه ناقوساً مازال به يقرع
و في يده الأخرى مشعلا نوره في ظلمة الليل يسطع

فجذب هذا الدخول أنظار الحضور
و استحوذ على اهتمامهم
و تعلقت به أبصارهم
و لما بلغ مكانه بينهم
سكن فجأة لدقيقة أو يزيد
ثم ألقى الناقوس على الأرض فأحدث ضجة
ووضع المشعل في مكان أعد له على جذع شجرة
ثم أجال النظر بينهم
و قال: أحبائى و أهلي
يا من عشت بينكم عمري
فوضع كلٌ منكم
لبنة في داخلي في قصر مشاعري
فكانت سكناكم بين الحنايا و الضلوع
أحمل لكم حباً و اهتماما
و أنا أعلم أنكم تحملون لي
مودة و حنانا
أقص عليكم الليلة قصة فريدة
غريبة و عجيبة
حدثت في مكان ما

لا أعلمه أين
لكنها حدثت
أعلمني بها هاجس لدي
استحلفته بارتباطنا الأبدي
فقصها عليّ
إنها قصة ذلك الجنِّي
المدعو خادوريس
جُبل على الشرور و له بها دراية
وأذى الناس من جن و إنس عنده هواية
و لكي يمنعوا عن الآخرين أذاه و شره
حبسوه .. نعم سجنوه لمدة طويلة
إلا أنه و إن طال زمان حبسه
آن له أن يخرج منه طليقا
ثم أوكلوا إلى الجني ديرموسيس
ذلك الجنى الطيب
أمر مراقبة الجني الخبيث خادوريس
حتى لا يطال أذاه إنس و لا جان
فلما شعر خادوريس بضيق دنياه
و حُرم من هوايته أن يطلق على الآخرين أذاه

قرر أن يهرب بعيداً و يتوارى
فأخذ يجوب الأرجاء باحثا
و لكل مكان يراه فاحصاً
حتى استقر به رأيه
على بلدة في رحاب الإنس واقعة
هادئة وادعة
على شاطئ البحر حدودها
و للسلام و الوفاق يجنح أهلها
بلدة كبلدتنا.. إلا أنها ليست بلدتنا
فلا تخافوا و لا تحزنوا
و لكن تفكروا و تدبروا و تعلموا
و في كل حين تذكروا
قرر خادوريس أن يجعل من تلك البلدة
مقرّاً دائماً له
فاحتال على أهلها
و في ثوب رجل رحالة
قادم من مكان بعيد
تعرّف إلى أهلها
و أغدق عليهم من المال و الهدايا

حتى قرَّبوه و أحبوه
و لأنهم قوم بسطاء و لا أقول سذج
رفعوا مكانته بينهم
وأكرموا مقامه عندهم
وبشرهم الجني خادوريس
والذي خدعهم و أفهمهم أن اسمه أنيس
بالمال الوفير و الخير الكثير
واقترح عليهم مشروعه الذي زينه لهم
والذي هو في ظاهره الخير
و في باطنه خراب كبير و شرٌّ عظيم
والذّي أسماه : «معمل الجمال»

•••••

صمت الحكواتي لفترة ....
و قلَّب بصره في وجوه الحاضرين
فوجدهم مشدوهين
و إلى حديثه و حكايته منصتين
قال: أرجو ألّا أكون قد أطلت عليكم
قالوا: أبداً أبداً

قال: أكمل حكايتى اليوم .. أم أدع البقية لمرة قادمة ؟

قالوا: بل أكمل حكايتك اليوم

قال رجل :

-نريد أن نعرف قصة معمل الجمال

و قال آخر :

-و لماذا هو مشروع ظاهره فيه الخير و باطنه فيه العذاب ؟

قال الحكواتي :

-سوف أكمل و لكن دعوني أخلد إلى الراحة قليلاً و أتناول قدحا من الماء أو تفيضون علىّ بقدح من عصير طازج

فانبرت امرأة من الجمع و قالت :

-خذ هذا القدح من عصير الرمان، أعددته اليوم خصيصا لك لأهديك إياه

ثم قامت فذهبت إليه و أعطته إياه

فالتقطه في غبطة.. ثم رشف منه رشفة.. فرشفة وظهرت على وجهه علامات الرضا و الإعجاب

وقال : من أجل هذا الشراب اللذيذ .. أكمل لكم الحكاية

وسألهم يشحذ ذاكرتهم و يجذب إنتباههم

- أين وصلنا في الحكاية ؟

قالوا: مشروع معمل الجمال

قال: نعم . مشروع معمل الجمال

-هو مشروع يا أحبتي يتكون من تمثال خشبي واحد، على هيئة امرأة لها قياسات رائعة. إذا دخلته أي امرأة.. وتمكث فيه زمنا –يختلف بعدد العيوب التي تملكها بجسدها- تخرج منه وقد تغيرت تلك العيوب وانمحت وأصبحت تلك المرأة تمتلك تلك القياسات الابداعية التي للتمثال .. و هي قياسات جمالية فائقة .. فمن كان لها شعر أجعد أو انف طويل أو معوج أو سيقان قصيرة.. أو وجه محدود الجمال أو كان وزنها زائدا.. أو جسدها نحيلا .. أو .. أو ...

و هكذا فكل امرأة مهما كان شكلها سوف تصبح أجمل امرأة .

ثم قال الحكواتى موجها حديثه للحاضرات من النساء :

-ما رأيكن ؟ أليس هذا إختراعا جميلا و مبهرا ؟

ثم تدارك :

-قبل أن تجيبوا .. دعونى أكمل لكم الحكاية .

طبعا فرحت نساء البلدة بالمشروع وعزمت كل واحدة متزوجة أو تنتظر الزواج أن تذهب إلى هذا المعمل لتكمل ما نقص عندها من صنوف الجمال الجسدى ..

ورحب الرجال كذلك بالفكرة فما أبدع و أمتع أن تكون زوجته جميلة فيستمتع بجمالها، أو أن تكون ابنته جميلة فيكون زواجها سهلا ومغرياً .

نظر الحكواتى إلى الحضور و قال :

-ما رأيكم أنتم أيضا إخوتى و أخواتى .. أليس اختراعاً جميلاً ؟

-أعرف أنكم ستقولون لى نعم، انه اختراع عظيم، و لكني أقول لكم بالعكس.. لقد جر هذا الاختراع الشيطانى الخبيث على البدة الهادئة الوادعة ويلات مروعة.. ولقد كان أخطر ما فيه، والسبب الذي سجن بسببه خادوريس، الآثار الجانبية له .. و أنتم تعلمون أن كل صنع لمخلوق لابد أن يكون له جانب إيجابى و آخر سلبى تتغير نسبهما بين شيء و آخر .. إلا أن الآثار الجانبية لهذا الإختراع كانت أعلى كثيرا من فوائده.

أتعلمون لماذا؟ سوف أقول لكم لماذا لكن الأسبوع القادم في مجلسنا وسمرنا بعد أسبوع .

علت الهمهمات وتناثرت الكلمات بين الحاضريين وارتفعت الأصوات يرجون الحكواتى أن يكمل لهم الحكاية، و يقص عليهم بقية الرواية، فأشار إليهم أنه سوف يكمل القصة الليلة إلا أنه طلب منهم وقتاً للراحة وليتناول بعض الطعام والشراب.. وسألهم عما أحضروا له، فقامت فتاتان تحملان الطعام و الشراب فاتجهتا إليه و وضعتا ما معهما بين يديه .

•••••

وقف الحكواتى مرة ثانية بين الحضور و قال :

-الآن أكمل لكم ما انقطع من الرواية.. هذا الاختراع الخبيث و لا أقول الجميل كان له آثاره الضارة.. فكل من دخلت الجهاز ، خرجت منه امرأة غير التي دخلت.. في شكلها.. وطبعها.. يغير هذا الجهاز من قناعات و طبع من

يدخله.. فيصبح أكثر تمرداً وعصيانا.. يجفف عنده ينابيع الخير والصدق والقناعة والصبر.. ويوقظ لديه نوازع الشر وحب النفس والكراهية والانتقام .

و كأن لسان حال نساء البلدة اللاتي ذهبن إلى معمل الجمال هذا يقول « لقد أصبحت الآن جميلة.. لماذا أرتضى حياة الشظف والضيق.. يحق لي الآن أن اتنعم وأترف يحق لي الآن أن أتدلل و أترفع .. ويجب أن يعرف زوجي ذلك، و يجب أن يتأقلم مع الوضع الجديد »

توجه الحكواتي إلي الحضور من النساء.. ما رأيكن الآن؟

أليست حياة نساء تلك البلدة الجديدة هي أجمل و أمتع؟ لابد للمرأة الجميلة أن تستمتع بمزايا جمالها.. أن يدفع من يحبها أو يتزوجها ثمن هذا الجمال .. من ماله.. من تحمله.. من أعصابه.. من صبره.. و من كرامته في بعض الأحيان .

أترضون هذا لمحبيكن و أزواجكن ؟ لم أسمع منكن تعليقا ؟ أيكون الصمت دلالة الإيجاب؟ أم أن الصمت الذي ساد الآن دليل الاستنكار والتعجب و التدبر ؟ أقول لكم الآن ما حدث :

-سادت الخلافات بين الأزواج.. كثرت المشاكل بين الجيران.. تقطعت الأواصر بين الأقارب تحطمت الأسر و تهدمت البيوت. انطفأت أضواء من ود وتراحم ومحبة وإيثار.. وضاق الرجال بالنساء وانقسمت النساء بين

خائفة من الذهاب لهذا المكان و بين راغبة في الذهاب والتغيير مهما كلف ذلك من ثمن .. المهم أن تكون جميلة .

صمت الحكواتي و أخذ يقطع المكان ذهاباً و إياباً ثم قال فجأة :

-أتظنون أن تعم الفوضى والشقاق والاختلاف و يسود الشر ؟ أتظنون أن يستمر هذا؟ أحب أن أطمئنكم.. لا يمكن أن يدوم ذلك.. و إن ساد لبعض الوقت.. وعندما أكمل لكم القصة.. ستتبينون ذلك جيداً .

-منْ مِن أهل تلك القرية أقلقه ما يحدث و ترك في نفسه وعقله وقلبه ألماً وحزناً وتفكراً.. إنه الحكيم ديموس، حكيم أهل هذه البلدة، يلجأ إليه في حل مشاكلهم و يأخذون رأيه فيما يعرض لهم من مشاكل الحياة.. و كان عنده لكل مشكلة حل و لكل معضلة مخرجا، و لكل نائبة ما يخففها عن أهل بلدته و ينهيها .

-إلا أن فكرة هذه المرة وقف حائراً، عاجزاً، و هو يرى اندفاع نساء البلدة القوى نحو هذا المكان الرهيب.. و هو يرى ابتسامة وانشراح أنيس صاحب المعمل و الذي لم يكن يدري أحد عنه أنه الجنِّي خادوريس .

يجلس الحكيم ديموس مع ابنته الوحيدة ماريديت يتحادثان.. يحاولان جاهدين أن يجدا لما يحدث مخرجاً ونهاية غير انهيار الأسر.. وخراب البيوت العامرة ..

و يمازح ديموس ابنته ماردت :

-أتودين أن تذهبي أنت أيضاً يا ماردت إلى هذا المعمل الخبيث ؟

تبتسم ماردت ابتسامة تشرق معها الدنيا حولها ، فما كان أجمل ابتسامتها وتقول هي الأخرى مازحة مع أبيها :

-و هل تراني أنت أحتاج إلى ذلك ؟ ألست جميلة ؟

يقول ديموس :

-بل أنت أجمل الجميلات، و من بجمالك في مثل تلك البلدة؟ جمالك يا ماردت جمال الخلق والخُلُق.. جمال الصورة والنفس.. جمال الوجه والروح. حتى أني يا ماردت أخشى من اليوم الذي ستتزوجين فيه و تفارقيني ، ولكن «من ذا يستحق هذه الجوهرة الفريدة »

ويصمت الحكيم ديموس متفكراً وتعلو وجهه سحابة من حزن، و يسرح ببصره بعيداً و تفتر ضحكة ماردت هي الأخرى، و يحاولان مرة أخرى إيجاد حل لما يحدث في المدينة إلا أن النوم يغالبهما، و قد أيقنا أن الغد ربما يحمل الحل و الخلاص .

ثم يضيف الحكواتى جاذباً انتباه الحضور إليه ومبعداً عن أعينهم النعاس وكاسراً لهم ما قد يتسرب إليهم من ملل لطول الحديث :

-أحبائى.. إخوتى.. أخواتى، لقد كان الحكيم ديموس في كل آرائه حكيماً رائعاً، فإذا ما استعصى عليه حل مسألة أضاف بعد الزمن إلى وسائل الحل .. فلقد كان يؤمن أن التغيير سنة الحياة و أن ثبات الحال من المحال و أن الغد بملابساته الجديدة وظروفه التي لا نعرفها قد يحمل لنا الحل بكل بساطة و سهولة .

-و حدث يا أحبائي ما توقع الحكيم ديموس من الغد .

فبينما هو في الصباح الباكر يجلس عند شجرة الصفصاف المجاورة لكوخه الصغير. إذ يلمح في الأفق قارباً يقترب من الشاطئ، فذهب ليرى ما يكون، فإذا برجلٍ ينزل من القارب يقترب من الشاطئ و يقول:

-غريب يريد ماءً و ظلا وطعاماً.. فهل يجده عندكم ؟

فإذا كانت الأرواح تتلاقى وإذا كانت النفوس تتعارف و إذا كان كل إلف ينجذب ويطمئن ويأنس لإلفه فقد أنس وألف الحكيم ديموس وجه وروح هذا الغريب الذي أتى، والذي دعاه على الفور أن يكون ضيفه.. فأجلسه في مكان من الكوخ هواؤه عليل.. يطل على البحر.. و دعا ابنته ماردت لتكرم الضيف فتقدم له الطعام و الشراب.

لم يسأل الحكيم ديموس الغريب عن إسمه أو بلده أو عمله أو وجهته، وانتظر أن يخبر الغريب بما يود أن يخبر و أن يمنع و يكتم ما يريد أن يمنع ويكتم .

إلا أن الغريب كان أريباً و هو يرى في عيني الحكيم ديموس تساؤلات لم يفصح عنها فابتدره قائلاً:

-أدعى إدريس.. نعم هذا إسمى.. إدريس الذي أدعى به بين بنى آدم .

وقعت كلمة بنى آدم على أذن الحكيم ديموس موقع التعجب والاستغراب !

فأكمل الغريب كلامه:

-لا تتعجب فسوف أقص عليك قصتي كاملة الآن قبل أن تتوطد بيننا صداقة وأخوة، فـأنا أريد أن يعرف كلٌّ منا عن الآخر كلّ شيء بصدقٍ وصراحة، فما بُني عليهما دام و بورك فيه و أما غير ذلك فليس لي به نية و لا مقصد و لا غاية ..

صمت الحكواتي مرة أخرى و قد بلغ به تعب و إجهاد من طول الحكاية، ونظر إلى الحضور فإذا هم كذلك يغالبون التعب والنعاس متململين في أماكنهم ، أنزل النعاس جفون بعضهم

فقال: سوف أكمل لكم حكاية الغريب إدريس مع الحكيم ديموس و ابنته ماردت و ما فعله ثلاثتهم ليجابهو شر أنيس و يعالجوا أهل البلدة مما حل بهم من شرور و خلافات .

إذن فموعدنا يا أحبتي في جلسة الأسبوع القادم .

وبينما هَمّ الحكواتي بالانصراف من المكان إذا بصيحاتٍ من بعض الحضور تستبعد الأسبوع القادم .. فاستدار إليهم

و قال: إذن ماذا تقترحون ؟

صاح بعضهم :

-لا بل غداً.. غداً في المساء تكمل لنا الحكاية

وازدادت الأصوات المطالبة بأن يكون الغد موعداً جديداً للسهر والسمر والحكاية ، فوافق الحكواتي و قال:

-إذن غداً أكمل لكم الحكاية و ما بقى من الرواية، فإلى الغد .

ماردت

أو

الروح الجميلة

الجزء الثاني

ماردت

أو

" الروح الجميلة "

الجزء الثاني
إدريس

في اليوم التالى حرص معظم أهل البلدة على التوجه إلى ساحة اللقاء متشوقين لسماع بقية الحكاية.. و كان بانتظارهم اليوم الحكواتى الذي جلس مستنداً لجذع شجرة قريبة مرتدياً ملابس بيضاء وناصعة وفوق رأسه عمامة بيضاء وناصعة .

فلمَّا أحس بأن موعد اللقاء قد اقترب و رأى اكتظاظ الساحة بالحضور سُرَّ لذلك وانشرح صدره فلقد كان الهدف الرئيسي من الحكاية هو ما سيحكيه اليوم، و كم يود لو سمعه كل أهل بلدته، فوقف بينهم وأجال النظر فيما حوله ثم بدأ الحكاية فقال: أعرفكم اليوم أحبتي و أهلي بحقيقة الغريب المدعو إدريس والتي بدأ يقصها على الحكيم ديموس بينما جلست ماردت الجميلة على مقربة منهم تستمع لحديثهم ..

فقال الغريب :

-اسمي إدريس.. وصنعتي الزراعة .. عندي علوم كثيرة بها .. و لديّ هنا بالقارب بذور أشجار وأزهار أحضرتها أوزعها على بلاد كثيرة أرتحل إليها ليزرعوها فتمتلئ الأرض خيراً و جمالاً.. أعرفك من كلامك أيها الحكيم .. فالألفاظ التي تخرج من فم المرء والأفكار التي يعرضها ترسم للمستمعين صورة دقيقة عنه.. سمعت كلامك وتبينت أفكارك.. و لي عندك ضيافة أيام ثلاثة أرافقك فيها فأعلمك وأعلمك مما عُلِّمت رشداً، أزرع أنا وأنت حول الكوخ وتعلِّم أنت أهالي البلدة بعد رحيلي.. معي هنا بذور أشجار مثمرة وأشجار ظل و زينة.. معي أيضاً بذور أزهار جميلة مبهجة .. هذه هديتي لك و لأهل بلدتك الطيبين .

واستطرد إدريس يا أحبابي قائلا:

-و لكن عندي سؤال مهم أود أن تجيبني عليه .

فرد عليه الحكيم ديموس مبتسماً :

-بالطبع سوف أوافيك بالجواب إن كان عندي .

قال إدريس :

-هل من غريب مر ببلدتكم في الآونة الأخيرة.. رجلٌ لا تعرفونه من قبل ؟

قال الحكيم ديموس :

-لقد ضغطت على الجرح مباشرة

فأجابه إدريس وقد أرهف سمعه و حواسه و شعر أخيراً أنه عثر على ضالته، فأكمل ديموس :

-هناك رجلٌ غريب حل على بلدتنا منذ فترة و أحدث بها تغييرات أحزنتني و أرَّقت خاطري .

قال إدريس :

-وكيف فعل ذلك .

فأجاب ديموس :

-لقد أنشأ ما أسماه «معمل الجمال».. تمثال على هيئة إمرأة تدخله النساء فيصلح ما كان قبيحاً فيها و يحولها إلى امرأة جميلة .. غير أنها ...

فالتقط إدريس منه خيط الحديث و أكمل :

-ولكنها تخرج منه بشخصية غير التي كانت عليها.. تتغير إلى الأسوأ .. يصلح ما ظهر منها ويخرب الأفكار والمشاعر والسلوك.. أليس هذا ما فعله؟

أكمل إدريس كلامه قائلاً :

-لقد أرحتني الآن كثيراً، هذا ما كنت أجوب البلاد باحثاً عنه.. لقد كنت أبحث عن ذلك الرجل حتى أقي الناس شره و أعينهم على التغلب على ما يجره عليهم بأفعاله و أفكاره من مشاكل و مصائب .

قال الحكواتي ينبه من يستمع إليه ويجذب أبصارهم وأسماعهم و انتباههم :

-أرأيتم إخوتي كيف سارت الأمور؟ هل خمنتم من يكون إدريس؟ أظن بعضكم قد تبين الآن من يكون إدريس. إنه الجني الطيب ديرموسيس الذي كان مكلفا بمراقبة الجني الخبيث خادوريس ..

-إذن فنحن الآن أمام خادوريس الشرير الجني الذي استطاع أن يهرب من المراقبة ويتخذ من هذه البلدة الهادئة الآمنة ملاذاً ومهرباً؛ بعد أن تحول إلى رجل يدعى أنيس، فنفذ ما كان يرجو من نشر للخراب و الشرور متخذاً من اختراعه تلك الآلة سبيلاً .

-و بين الجنى الطيب ديرموسيس الذي يدعي الآن إدريس و الذي ظل يجوب الأرجاء والأجواء والبلاد باحثاً عن هذا الشرير ليقي الناس شره ويخبرهم عن حقيقته .

فأخبرونى يا أحبائى من منهم سوف ينتصر رغم أن الجنى خادوريس قد نفذ تقريباً ما يريد فأشاع بالبلدة الشقاق والخلاف ونثر فيها بذور الكراهية وحب الذات و أيقظ بالنفوس الشرور و ... ها هو الآن يجلس في معمله فرحاً مزهوًّا بمعمله تكاد أساريره تعلن عن ذلك أم ..

أم ينتصر الخير والجني الطيب ديرموسيس فيخمد بركان الشرور ذلك ويستطيع أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه ؟

لا أطيل عليكم ولن أدعكم تفكرون كثيراً فسوف أكمل لكم الحكاية:

-بعد أن رأى إدريس الذي هو الجني الطيب ديرموسيس كما تعلمون علامات التعجب و الاندهاش تكسو وجه الحكيم ديموس؛ بادره قائلا:

-سوف أقص عليك أيها الحكيم قصتي.. و أفسر لك ما فعله ذلك الغريب أنيس في بلدتكم و أقول لك عن حقيقته و من هو .. و ما اسمه الحقيقي .. و ما هي نواياه و كيف نستطيع أنا و أنت أن نجابه ما فعله و ندمر له ما بقى من قصور الشر ..

صمت الحكواتي قليلاً و قال :

-أليس هناك من شراب مذاقه حلو يعينني أن أكمل لكم الحكاية؟ أم نؤجل ذلك إلى الغد ؟

فأسرعت فتاة تحمل إناءًا به شراب الرمان ممزوجا بالعسل أعدته سلفاً لتعطيه للحكواتي فأعطت له الإناء وصاح بعض الحاضرين :

-بل تكمل لنا الحكاية اليوم و ها هو الشراب الحلو ونعطيك غيره وغيره ولكن أكمل لنا الحكاية.

تناول الحكواتي الشراب و انتظر قليلا و رأى العيون الشاخصة إليه تنظر وتنتظر .. فاستجاب و بادر قائلا :

-إذن نكمل الحكاية، أين وصلنا يا أحبتي.. آه.. عندما أخذ إدريس والذي تعرفونه جميعاً الآن بأنه الجني الطيب ديرموسيس.. أخذ يقص على الحكيم حكاية الجني الخبيث خادوريس والذي حُبس زمناً لأعماله الشريرة ثم أُفرج عنه أخيراً وكيف أنه كان مكلفاً بمراقبته إلا أن خادوريس غافله وهرب.. و الآن عثر ديرموسيس عليه .

-وعندما سمع الحكيم ديموس تلك القصة الغريبة العجيبة والتي لا تكاد تصدَّق . جلس متفكراً للحظة.. ثم بادره إدريس قائلا:

-لك كل الحق ألا تصدق ولكن ما سنفعله أنا وأنت من محاولة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ستثبت لك صحة حكايتي و صدق نيتي .

في هذه الأثناء أحبائي و أحبتي كانت ماردت الجالسة بالقرب منهما تستمع هي الأخرى لقصة إدريس.. فاستأذنت من أبيها أن تدخل عليهم وتشاركهم الحديث .. و قالت داعمة لقصة إدريس و مؤيدة له :

-أشعر يا أبي بالصدق في روايته و أنا أثق في نقاء سريرته و صدق نيته وأملي أن نحاول .. فحال البلد لا يسر .. وعيش أهلها مرّ .. والمحاولة شرف في حد ذاتها .. والتوفيق و السداد هي أمر المولى عز و جل ولكن وجب علينا أولا أن نعمل و نحاول .

نظر الحكيم ديموس إلى ابنته ماردت وأطرق بعد أن سمع حديثها متفكراً.. وقد كان يعلم علم اليقين أن رأى ابنته دائماً ما يكون صائباً وأن احساسها بالآخرين دائما أيضا ما يكون صادقاً.. فبراءتها التي لا مثيل لها بين نساء البلدة.. ونقاء سريرتها الذي يحاكي بياض الثلج وذلك الحب الصادق الذي تكنه للآخرين.. ورغبتها الأكيدة في إسعاد غيرها ودفع الأذى و الحزن عنهم .. كل ذلك يعلمه عن ماردت جيداً.. إذن إذا كان هذا رأيها في إدريس فهو صادق بالتأكيد، ووجب عليه إذن -أي على الحكيم ديموس- أن يساعد في خلاص أهل البلدة مما حل بها من أذى

وشرور ووجب عليه أن يستمع لتلك النصيحة من إدريس وكيف سيخلصون البلدة وينتصرون على خادوريس ويدمروا آماله الشريرة وأحلامه القبيحة وهواياته الفاجرة الكريهة.

فقال الحكيم ديموس لإدريس :

-إذن أنا أثق في حكم و حكمة ابنتي ماردت فهو و لو تعلم من النقاء والصفاء والصدق وحب الخير و تقديم المعروف لذات شأن و مكانة ..

ثم أكمل الحكيم حديثه :

-دعنا الآن نتناول العشاء و غداً سوف نتحدث باستفاضة عما سنفعل

.....

سكت الحكواتي ثانية و قطع المكان الذي هو به ذهاباً وعودة مرات مشوِّقاً سامعيه و مضيفاً إلى حكايته لمسة من غموضٍ و إثارة ، ثم توقف و أكمل :

-أحبتي وأحبائي في الصباح التالي بدأ إدريس والحكيم ديموس وابنته ماردت إكمال مناقشة ما سيفعلونه، و أخبرهم به بالتفصيل إدريس .

قال لهم إدريس :

-تعرفون جيداً المثل القائل لا يفلُّ الحديد إلا الحديد .. و في حالتنا هذه لا يجابه و يضاد و يوقف تلك الطاقة الشريرة الهائلة الموجودة بتلك الآلة التي اخترعها خادوريس الخبيث، إلا طاقة خير هائلة مضادة.. لا يقاوم

الكراهية والأنانية والحقد إلا الحب والإيثار والتسامح وحب الخير للآخرين .. أين نجد تلك الطاقة ؟

تساءل الحكيم و تساءلت ماردت

-أنَّ لنا بهذه الطاقة المضادة التي تتحدث عنها يا إدريس ؟

تلعثم إدريس قليلا و تردد قبل أن يجيب فتساءل الحكيم مرة أخرى وتساءلت ماردت .. فلم يجيب أيضاً إدريس لبعض الوقت ، فلما ألحا عليه بالسؤال قال:

-أخشى أن تكون إجابتي مزعجة و مقلقة لكما ..

قالا: أخبرنا و دعك من خشيتك و ظنك .

قال: موجودة هي هنا .. في هذا المكان .

فتعجبا من قوله ، و انتظرا حتى يكمل فقال :

-كل هذا موجود و متوفر في ابنتك ماردت أيها الحكيم .. تمتلك ماردت طاقة من النقاء و الصفاء والخير والحب والإيثار لم أجدها في أي بشرى قابلته حتى الآن ...

و أكمل: و كلِّي أمل أن تحطم تلك الطاقة هذا الجهاز الشرير الخبيث وتنهي آلام و أحزان و أسى القوم .

قال الحكيم :

-لمَ الخشية إذن أن تخبرنا، فأنا و ماردت كما تعلم على أتم استعداد أن نفعل ما نستطيع لكي ينتهي هذا الوضع الذي تعيشه بلدتنا و أهلنا .

قال إدريس :

-إن خِشْيتي، و آمل أن أكون مخطئا، أن يسفر هذا الصراع الذي سيحدث بين الطاقتين عن استهلاك كامل و تفريغ كامل لحيوية و حياتية العزيزة الجميلة الرقيقة ماردت .

تعجب ديموس من الكلام وكذلك أظهرت ماردت هي الأخرى تعجبها و قالا له :

-أفصح و أوضح ما تريد قوله .

انتظر إدريس ثانية ثم قال بعد برهة :

-سوف تذهب ماردت إلى ما يسمى معمل الجمال و تدخل في تلك الآلة الخبيثة .. حينها ستبدأ الطاقتان في التصارع فإذا انتصرت أحدهما أصاب الأخرى ضرر بالغ و لابد أن تنتصر ماردت .

قال الحكيم :

-و هل تشك في ذلك ؟

قال إدريس :

-أبداً

قال الحكيم :

-إذا كان هناك شك و لو بسيط فإنِّي غير موافق أبداً أن تتعرض ابنتي لأي أذى و لو كان صغيراً.

قال ادريس :

-أنا لا أشك أبدا في مدى طاقة الحب و النقاء عند ماردت، لكني و في نفس الوقت لا أعلم مدى الشر الذي تحتوية هذه الآلة، و أنا أرى و أنت كذلك ما فعلت بنفوس أهل هذه القرية من النساء.

قال الحكيم :

-إذن فأنا غير موافق، ابحث لنا يا ادريس عن وسيلة أخرى

نظرت ماردت إلى أبيها و إلى إدريس و قالت :

-و أنا موافقة يا أبى، دعنا نحاول.. ما سأقاسيه لا يمكن أن يكون إلا ثمناً زهيداً لنجاة أهل البلدة جميعاً.. ما سأشعر به من ألمٍ أو ضعف أو مرض سوف يمحوه حتماً ما سأشعر به من غبطة و سعادة حين أرى الأسى والحزن والمشاكل والشقاق والصراع قد انزاح عن بلدتي و أهلها. ثم إن الخير يا أبي كما علمتني ينتصر دائماً. والحق يا أبي لابد أن يسود و ما جزاء الإحسان يا أبى إلا الإحسان .

وأكملت ماردت في قوة إقناع استمدتها من إيمانها بالفكرة :

-أليس هذا ما علمتني يا أبي .. ألم تعلمني أيضاً أن لكل منا قدره .. و لن يحدث للإنسان إلا ما قدَّره الله له .. و لن يغير الحذر من القدر و لن نهرب من الأقدار إلا إلى ما كتب لنا من الأقدار .

صمت الحكواتي مرة أخرى و نظر إلى الحاضرين و قال :

-أرأيتم ما تملكه ماردت من طاقة حب وعطاء وسمو ؟ أرأيتم مدى إيثارها نفع وخير أهل بلدتها عن مصلحتها هي و ما قد تقاسي ؟

فهل يا ترى سيوافق الأب الحنون؟ الأب ذو العاطفة الفطرية التي تخشى على الأولاد من أي سوء.. والمسارعة الدائمة له ليدفع عنهم الشرور والأذى .. هل تعتقدون أنه سيوافق؟ و إن كنتم مكانه فهل ستوافقون ؟

انتظر الحكواتي من الحضور الجواب.. غير أن أغلب ما سمعه من كلام بين الحاضرين كان كلمة «لا» .. فأردف قائلا :

-نعم .. إذا كنت مكانه فلن أوافق أن أعرِّض ابنتي للخطر و لنبحث عن وسيلةٍ أخرى .

-و هكذا يا أحبتي قال الحكيم ديموس لإدريس.. ابحث لنا عن حلٍ آخر .. غير أن جواب إدريس كان هو هو .. لا يوجد غير هذا الحل .

قال الحكيم :

-إذن لن أوافق

قالت ماردت :

-يا أبي فلنحاول و لن نجد إلا خيرا

ثم قالت :

-فلتدع الأمر للغد نفكر فيه مليّاً و نعطي أنفسنا وقتاً نقلب الأمر فيه على جميع الوجوه ..

هذا ما تم الاتفاق عليه بينهم .. نؤجل الأمر إلى الغد ..

و لكن.. و لكن يا أحبتي هذا ما أعلنته لهم ماردت، و لكنها عقدت العزم و أضمرت بنفسها أمراً آخر .. أتدرون ماذا عزمت و قررت و استقر

رأيها عليه ؟ أخبركم الآن ..لقد عزمت أن تذهب في الغد باكراً إلى معمل الجمال هذا وتدخل تلك الآلة الشريرة و قد جمعت كل ما تملك من إرادة حب وخير و من عزيمة صادقة قاطعة أن تهزم تلك الآلة .. و في الغد – و لا أطيل عليكم- تسللت مع أو خيوط النور و ذهبت بدون علم أبيها إلى ذلك المعمل لتنفذ ما استقر رأيها عليه .

•••••

طلب الحكواتي من الحضور طعام العشاء كما حدث الليلة الماضية.. و قال:

-نتناول العشاء و تكون فترة راحة بسيطة أكمل لكم بعدها الحكاية.. اطمئنوا لن أطيل عليكم ثانية فلقد قاربت حكايتنا على النهاية.. وأظنكم قد نمى إلى فكركم النهاية.. إذن دعونا الآن نتناول العشاء .

•••••

قام الحكواتي مرة أخرى نشيطاً مبتسماً مقبلاً بوجه بشوش على الحاضرين و قال :

-هذه حالي كما ترون .. ابتسم مع تحقيق الخير الانتصار .. و أفرح حين يندحر الشر و يزول.. أكاد أغنى و أطرب وأحتفل مع تغير حال أهل القرية وعودتهم إلى حالهم الأولى التي كانوا عليها ..

-استطاعت ماردت أحبتي بكل الطاقات الجميلة و المشاعر النبيلة والنية الصادقة و العزم القوي أن تنتصر على تلك الآلة الشريرة، فبعد أن ذهبت إلى معمل الجمال و سمحوا لها بأن تدخل إلى تلك الآلة و هم فرحين بهذا الوجه الصبوح الجميل والجسد الممشوق الذي يبعث على التفاؤل والإشراق و هم يظنون أن مثل تلك الفتاة لن تمكث كثيراً داخل الآلة، فعيوبها إن لم تكن منعدمة فهي قليلة قليلة.. إلا أنها مكثت زمناً.. وتعجب من بالمعمل و هم يستمعون إلى أصوات عالية و كأنما شيء رهيب يحدث داخلها.. فتعجبوا و تحلقوا حول الجهاز .

وخرج على إثر ذلك أنيس أو هو في الحقيقة كما تعلمون خادوريس، فذهب مسرعاً و استشعر بأن هناك شيء ما يحدث و أن خطرا ما قد اقترب .. و أن ما يحدث ليس طبيعيا أبداً .. فتساءل :

-هل تعرفون الفتاة ؟

قالوا: نعم هي ماردت ابنة الحكيم .

تعجب أنيس و انتظر و يكاد أن يتدخل إلا أنه شاهد الحكيم و معه الغريب إدريس يدخلان المكان، تلاقت عين أنيس أو خادوريس بعينى إدريس أو ديرموسيس فتعرف كلٌ منهما على الآخر، وأيقن خادوريس أن ديرموسيس قد أعد شيئا ما يحطم به عمله و ينهي به آماله .. وخشى أن يقبض عليه.. فكان لزاما عليه أن يسرع بالهروب قبل أن يقبض عليه ديرموسيس، واستشعر ديرموسيس ذلك.. فاستأذن من الحكيم ليذهب

ليقبض على خادوريس الذي تسلل من باب خلفي، ووعد ديرموسيس أو ادريس الحكيم بأنه سيعود ثانية ليزوره و ليطمئن على ماردت وانطلق ليلحق بخادوريس ..

أما بعد فترة من مراقبة الجهاز و فقد استبد القلق بكل ذرة في قلب الأب ديموس على ابنته ماردت.. فاتخذ من مكان منزو مجلساً و أخذ يدعو و يأمل أن تخرج ابنته سالمة.. وتحلَّق القوم حول الحكيم يستفسرون فطمأنهم ووعدهم بأنه سيقص عليهم القصة كاملة فيما بعد.. إلا أنه طلب منهم أن يتوجهوا بالدعاء كي يحفظ الله ابنته و أخبرهم أنها آثرت أن تضحي بحياتها من أجلهم .

قال الحكواتي :

-مر الوقت ثقيلا ثقيلا إخوتي على الحكيم و أهل البلدة، إلا أنه بعد الصبر يأتي الفرج و الخير . فلقد بدأت أجزاء تلك الآلة تتفكك جزءا تلو الآخر .. فتسقط الأيدي ثم الصدر والظهر و الرأس فتظهر ماردت بداخله مغمضة العينين و كأنها مغشي عليها.. فسارع بعض الأهالي بالتقاطها من هذا الجهاز الرهيب و حملوها إلى والدها الذي نظر إلى وجهها الشاحب و جسدها المتداعي الذي لا يكاد يتماسك فضمها اليه و قبلها، وأصغى إلى قلبها وتحسس أنفاسها فاطمأن قليلاً و علم أنها مازالت على قيد الحياة. فطلب منهم أن يحملوها إلى بيته .

فحملوها و قد بدأ يشعر كلٌ منهم و نساؤهم الحاضرات أيضاً بأن همًّا ثقيلا زال من فوق نفوسهم.. فلقد زال السحر و زالت آثاره السيئة .. شعروا كأنما غسلت نفوسهم بالضياء .

نظر كل منهم إلى الآخر فوجدوا نظراتهم القديمة الدافئة الحنونة قد عادت ، ووجدوا مشاعر الحب والود والألفة تغزو صدورهم و أخذ كل منهم يسارع ليساعد في توصيل ماردت إلى بيتها.

وذهبت السيدات فطببنها واعتنين بها.. وأصررن أن يمكثن في بيت الحكيم يخدمنه و يقومون برعاية ماردت حتى تسترد عافيتها ...

قال الحكواتي :

-أرأيتم أهلي وأحبتي.. وقاكم الله شر الشقاق والتخاصم والكراهية والأنانية .. و أدام عليكم نعمة الألفة و المودة و المحبة ..

-إخوتي.. فلأنصرف الآن فلقد بلغ بي التعب مبلغه وأود أن آوي إلى الراحة والنوم وألقاكم في الأسبوع القادم مع حكاية أخرى بها عظة وعبرة وتسلية وطرفة.

****

ليلة العيد

أو

" رضوان و نوسة "

ليلة العيد

أو

" رضوان ونوسة "

يا ليلة العيد أصبحينا
و اطردي ما بالمدينة
من مرارات الأسى
في غلالات السكينة
و بدلي الأحزان

.....

في غرفة صغيرة، جلست نوسة على السرير القديم.. وقبالتها على أريكة قديمة جلس أخوها رضوان .

على حصيرة قديمة جلست الأم.. أمامها وابور الجاز توقده لتصنع لوليديها في هذه الأجواء الباردة طعام الإفطار في آخر أيام رمضان.

نوسة ذات السبعة أعوام صائمة.. و طبعاً رضوان ذو العشرة أعوام صائم .

نظرت الأم إلى الابن والابنة.. فاضت عيناها حناناً واحتضنت بنظراتها الحانية تلك نوسة ورضوان.. شعر الطفلان بسحابة من عطف وحنان

أمطرت فوقهما فقاما من فورهما و أحاطا بالأم ثم طبع كل منهما قبلة فوق رأس الأم بينما كانت يديها مشغولتين بوضع الطعام فوق الوابور .

رجع الطفلان كلٌّ إلى مكانه.. نوسة فوق السرير القديم ثم وضعت فوق جسدها ذلك الغطاء البالي يدفئ جسدها الصغير النحيل .

فوق أريكته وقف رضوان منتصباً وقد حمل بيده ورقة يريد قراءتها. وقال:

-اسمعيني يا أمي.. اسمعيني يا نوسة، لقد كتبت أغنية جميلة عن رمضان .

علت ضحكة نوسة.. قالت الأم :

-انتظر حتى يجيء أبوك

قال: سوف أكررها له مرة ثانية، و لكن اسمعوني أنتم أولاً

طرحت نوسة الغطاء بعيداً عنها.. ووقفت منتصبة هي الأخرى فوق السرير .. و قالت :

-لنستمع إلى المؤلف الكبير .. رضوان خليل

ابتسمت الأم.. تراجعت قليلا بعيداً عن وابور الجاز بعد أن وضعت عليه وعاء الطعام منتظرة أن يتم الطهو.. وأسندت ظهرها المتعب من عناء العمل في هذا اليوم إلى الأريكة التي يقف عليها رضوان .

كان يوماً شاقاً على الأم، فبعد أن أدت الأسرة صلاة الفجر، حيث وقف الأب إماماً لهم يتبعه بمسافة قصيرة رضوان ثم وقفت الأم ونوسة خلفهما .. بعد الصلاة عاد الزوج ليكمل نومه استعداداً للذهاب إلى عمله مع بداية النهار.. و قفز رضوان و نوسة كلٌّ إلى جانبه فاحتضناه و أغمضا أعينهما

إستعداداً للنوم و قد التف ذراعا الأب أحدهما حول رضوان و الآخر حول نوسة .. سرت الطمأنينة إلى نفس الأب.. و بعث احتضان الولدين في جسده الدفء فسرى النوم هادئا هانئاً إلى جفنيه ..

أما الأم فكان أمامها مهام كثيرة تنجزها حتى يظهر هذا البيت المتواضع للزائرين أثناء أيام العيد بهيّاً جميلا، فكان نهارها وهي صائمة طويلا وشاقاً.. عندما أفاق الزوج من نومه استعدادا لذهابه إلى عمله.. وجدها على حالها هذا من العمل المضني، جلس على حافة الأريكة و أجلسها بجانبه ثم وضع يده في حنان على كتفها و ضمها إليه فانشرح صدرها و سُرّ قلبها وابتسمت ابتسامة واسعة وسرى شعورها هذا إلى الزوج الذي قام بتقبيلها فوق جبهتها ثم قام مغادراً إلى عمله ..

أخذ رضوان ينظر إلى الورقة التي في يده بعض الوقت قبل أن يتكلم ، أغمضت الأم عينيها قليلاً علّها تنال قسطاً بسيطاً من النوم و الراحة إلا أن صوت نوسة أيقظها و هي تعلن للمرة الثانية: والآن نستمع إلى المؤلف الكبير .. رضوان خليل

أدارت الأم رأسها لولدها الواقف والورقة في يده يريد أن يقول الأغنية التي كتبها .. و سرى بفكر الأم و قلبها يقين عميق بأن هذا الصبي الذي يقف منتصباً سوف يكون له شأن .. و سوف يعوضها ابنها رضوان و أخته نوسة و يعوضان أبيهما عن كل سنوات العناء التي عاشتها الأسرة .

نعم سنوات عناء .. لكنها ليست سنوات هم و غم .. سنوات تعب لكنها ليست سنوات ضنك و أسى .. تعب ؟!

أي تعب ؟!

نظرت إلى رضوان و نوسة .. فقر ؟! أي فقر ؟.. نظرت إلى ما كانت تطهو و ما حولها من بيت سترها بحوائطه وسقفه يقيها البرد و المطر.. وحرارة الشمس و وهجها .. إلى فرش يجلسون و ينامون عليها، إلى ملابس مناسبة ليست فاخرة أو مبهرة، تسترهم و يستطيعون السير بها بين خلق الله .. قالت : الحمد لله .. كنوز .. كنوز .

انطلق صوت رضوان الابن أخيراً .. رفع عقيرته فجأة و هو يقول :

- ليالي رمضان رمضان
- ليالي رضا و إيمان
- ليالي محبة و خير
- لينا و كمان للغير
- ليالي هنا و أفراح
- فيها النفوس ترتاح
- ليالي رمضان رمضان

هللت و صفقت نوسة وانبعث سرور يغشى نفس و روح الأم، فصفقت هي الأخرى و قالت لابنها.. ممتاز.. لك مني درجة ممتاز . فانتشى رضوان و طوى الورقة و جلس على الأريكة مبتسماً لا يدري ما يقول !

واقترب موعد الإفطار.. و كان الأب قد جاء منذ وقت قصير فجلس بجانب رضوان على الأريكة و علامات التعب بادية عليه .

فسارع رضوان وأحضر لأبيه منشفة يجفف بها قطرات المطر التي مازالت فوق رأسه و وجهه.. وأحضرت نوسة لأبيها جلبابه الذي يرتديه بالبيت وانتظرت واقفة حتى خلع ما عليه من ملابس و ارتدى جلبابه وجلس.. وسارعت الأم إلى إحضار وعاءً به ماء ثم أذابت فيه بعضاً من الملح ووضعته تحت قدم زوجها فوضع قدميه به.. وأسند رأسه إلى الحائط من خلفه وقد علت وجهه علامات تعب وإرهاق ورضا، كلها مختلطة وأغمض عينيه لعله يسعد بدقائق قليلة من نعاس يغتنمها قبل الإفطار.

بعد أن انتهى الجميع من تناول طعام الإفطار سمعت نوسة صوت بائع الفيشار ينادي على بضاعته في هذا الطقس البارد الممطر.. فطلبت من أبيها قرشاً تشتري به.. ابتسم الأب وأعطاها ما طلبت إلا أنه اشترط أن يصحبها أخوها، فقام مسرعاً رضوان وانتعل حذاء أبيه فلم ينهره، وانتعلت أيضا نوسه حذاء الأم فابتسمت.. و فتح الباب.. خرجت نوسة و رضوان فلفحهما هواء بارد واستقبلتهم قطرات من المطر الخفيف.. يقف بائع الفيشار هناك على رأس حارتهم.. كميات من المياة تملأ أرض الحارة، لابد أن يخوضا مسافة ليست قصيرة بهذه المياة.. كانت أبواب البيوت ونوافذها مغلقة خشية البرد و المطر .. أضواء خفيفة تسللت من أبواب البيوت أو نوافذها .. صبي صغير وفتاة صغيرة التصقا معاً.. تشابكت أيديهما والتصقت

أجسادهما.. يسيران وحيدين في هذه الأجواء.. يقطعان المسافة معاً.. وأمامهما عن بُعد وقف بائع الفيشار بعربته و قد ارتدى معطفا صوفياً ثقيلا وأضاء أمامه موقداً مشتعلاً.. وضع فوقه إناء الفيشار فظهرت حبيبات الذرة الصفراء الصغيرة و هي تتحول إلى كرات بيضاء هشة دافئة .. ونظر نوسة ورضوان إلى العربة .. ونورها البادي فلم يعبئا بما حولهما وأكملا الرحلة متجهين إليها .

نظر بائع الفيشار إلى القرش المقدم له من نوسة ثم أطال النظر مرة أخرى إلى الفتاة و الصبي.. و نظر إلى القرش بيده مرة أخرى، ماذا يستطيع هذا المبلغ الضئيل أن يمنحهما مما عنده ؟

ابتسم.. أجزل لهما العطاء في كيس ورقي .. بدا الكيس كبيراً .. و ظهر ما به كثيراً.. تناول رضوان الكيس من البائع، خطفت نوسة الكيس منه و ضمته إلى صدرها.. مسح البائع بيد حانية فوق رأسي الصبي و الفتاة .. وتابعهما بنظرة و هما يسيران باتجاه بيتهما ..

قالت الزوجة لزوجها :

- عسى أن يكون ما حصلت اليوم من رزق وفيراً.. أملي أن نحقق للطفلين ما وعدنا من ملابس جديدة و بعض الحلوى نشتريها هذه الليلة .

انتظر الزوج قليلا قبل أن يجيب .. و قال :

-الرزق محدود و الأجل موعود ..

أيقنت الزوجة أن ما حصله الزوج اليوم هو هو.. رزقه الذي يكاد يكفيهم.. بالكاد يكفيهم .. يوم عيد أو يوم عادي .. لا فرق .

قالت: الحمد لله .. الرزق محدود ولكن رضانا بما قسم المولى بغير حدود .. و الأجل موعود .. أرجو أن يكون على رضا من الله علينا .. و بماذا تميز عنا من حاز الدنيا و ما فيها .. وجودك بيننا بصحة و عافية يكفينا لنسعد و نفرح .. و ولدانا رضوان و نوسة جوهرتان ثمينتان منحهما الله لنا .. كنز لا يضاهيه كنز في الدنيا .. و ستر الله علينا فلا نحتاج لأحد غيره و لا نسأل سواه .. غنى لا يعادل غنى آخر .

صمت خليل و نظر إلى زوجته وقال محدثا نفسه «أليست هذه الزوجة يا خليل من أفضل الرزق .. و ماذا عسى أن يزيد أو يتغير رزق حمال في سوق الغلال»

كان هذا هو عمل الزوج.. خليل خليل .. حمال في سوق الغلال .. حاول جاهداً أن يجد عملاً آخر.. و ماذا عساه أن يكون هذا العمل ؟ خائف هو من التغيير فرضى بالقليل .

وعزز هذا الرضا عنده زوجته لطيفة .. كانت فتاة بسيطة .. و أبوها فلاح طيب.. جاء إلى سوق الغلال يوما ليبتاع.. رأى خليل.. انشرح صدره له .. نشأت بينهما صداقة ومودة.. توسم الفلاح الطيب في خليل زوجاً لابنته لطيفة.. جمعتهما ألفة أرواح لم يستطع فقر خليل أن يفرقهما.. قال خليل :

-أنت ترى حالي

قال: ألا تمتلك غرفة تؤويكما ؟

قال: نعم ، هي كل ميراثي من أبي. بيت صغير في حارة ضيقة مساحته محدودة .. غرفة واحدة و ما يتبعها من ملحقات .

قال: نعمة من الله .. تكفينا غرفة

ثم أردف :

-و بها أثاث تنامون و تجلسون عليه ..

قال خليل :

-نعم و هو الأثاث الذي صاحب أمي حتى وفاتها.. سرير و أريكة وحصيرة و بعض مستلزمات البيت .

قال: حسناً .. يكفينا ذلك أيضا

قال خليل :

-و الرزق كما ترى و تعلم يصعد و يهبط و لكن في حدود لا يتعداها .

قال: الله كريم .

تزوج خليل من لطيفة و عاشا في هذا البيت و على هذا الأثاث .

لم تشعر لطيفة يوماً بالندم لزواجها من خليل ...

وكانت هي بالنسبة لخليل اشراقة هادئة لطيفة كاسمها في ليل حياته الطويل.. ثم أشرق مرة أخرى بحياته شمسان.. رضوان و نوسة.. فما يكاد خليل يدخل إلى بيته الصغير و يرى ثلاثتهم حوله إلا و يلهج لسانه بحمد

الله ، و أيقن بأن النقود ليست أبداً هي فقط الرزق .. وأيقن أن السعادة التي يعيشها تضارع أكبر سعادة قد يعيشها أغنى إنسان في الدنيا.

نظر خليل إلى زوجته بعد أن انهت كلامها و سرح بخاطره في بداية زواجهما وحياته معها.. و تذكر أن نوسة و رضوان قد تأخرا فسارع فنزل من فوق الأريكة عازماً أن يخرج إلى الحارة يتفقدهما، لكنه و قبل أن يخرج إذا باباب يفتح و يدخل رضوان ثم نوسة تحمل الكيس و على وجههما بدت الفرحة و السعادة .

•••••

ثالث أيام عيد الفطر.. مراسم زواج الدكتورة أنيسة من زميل لها.. طبيب شاب..

جلست أنيسة أو نوسة بجانب عريسها وقد أحاطتهما باقات الورود والأضواء وسطعت بالمكان الأغاني والألحان، وهناك جلس على مائدة بوسط المكان الدكتور رضوان.. صاحب صيدلية الدكتور (رضوان خليل) .. يبتعد قليلا عن الأضواء وعيون الأقارب والأصدقاء.. يتوارى قليلا ويحاول أن يمتع دموعاً مدرارة بدأت بالنزول من عينيه .. اليوم تتزوج نوسة يا أبي .. اليوم تتزوج نوسة يا أمي.. نوسة الدكتورة أنيسة طبيبة النساء.. أختي الصغيرة، صاحبة كيس الفيشار.. وأنا أيضا، سيكون زواجي بعدها بقليل ..

أليست هذه وصيتكم لي.. أن تتزوج نوسة أولا وأطمئن عليها و تطمئن وتسكن قلوبكما بشأنها ؟

ثم بعد ذلك أتزوج أنا.. نزلت الدموع من عيني رضوان و بدا صوت نحيب يحاول أن يكتمه و هو يتذكر أباه و أمه «الرزق محدود .. والأجل موعود» كان يتمنى أن يكونا برفقته اليوم.. و لكن ماشاء الله يكون.. خالطت أحاسيس بالسعادة و هو يرى أخته تزف إلى عريسها بشجن طاغ ودموع منهمرة و هو يتذكر والديه وتساءل «هل نستطيع أن نوفر لأولادنا هذه الحياة التي عشناها في كنفهم من أجواء الحنان والعطف والرعاية ؟ هل نستطيع أن نهبهم السعادة و الرضا الذي منحانا إياه»

قال رضوان و صوته المتهدج يكاد يصل إلى أقرب مائدة منه :

-اشتقت إليك يا أبي

-اشتقت اليك يا أمي

فانهمرت الدموع بغزارة.. ووجد يدا حانية ربتت على كتفه ثم امتدت بمنديل ورقي اليه ليمسح دموعه به.. كانت يد أخته نوسة التي تركت مكانها وبحثت بعينيها عنه.. فلما رأته ذهبت إليه فوقفت بجانبه برهة لا يشعر بها، فلما رأت دموعه نزلت دموعها هي الأخرى وسحبت منديلا لها مسحت دموعها به وقدمت آخرا إلى أخيها رضوان.. فلما رفع عينيه إليها و وجد دموعها.. قام من مكانه فاحتضنها بقوة ومسح على رأسها أن اطمئني واسعدي.. ثم أخذ بيدها وذهب بها مرة أخرى إلى مكانها بجانب عريسها ..

و عاد من جديد إلى مائدته .. ثم التقط منديلاً ورقياً و أخرج قلما و مارس هوايته وبدأ يكتب الأبيات التالية عليه وصورة والديه أمامه وكأنهما يطوفان بالمكان ...

يا ليلة العيد
طال اشتياقي
للفرح و الأناشيد
بعد الفراق
أقريب أم بعيد
زمن التلاقي
و صوت شادينا
و رنة الألحان
يا ليلة العيد أصبحينا
و بدلي الأحزان

****

محتويات الكتاب

درويش من حارتنا	4
المحاولة	19
لست حبيبي	28
نور الصباح	43
مسرح المدينة	53
ماردت أو الروح الجميلة الجزء الأول	72
ماردت أو الروح الجميلة الجزء الثاني	88
ليلة العيد أو رضوان و نوسة	104
محتويات الكتاب	116

تمت بحمد الله

درويش من حارتنا

مجموعة قصصية

مصطفى فاضل الخولي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com